الاتباع والابتداع

★

يصفنا الاوربيون بأننا شعب نحب الاتباع ولا نميل الى الابتداع وان التفتيش عن حكمة اجيال الماضية هي بالنسبة لنا اهم من العثور على حلول جديدة لمشاكلنا الجديدة. ويقولون اننا لا ننظر الى المستقبل ونواجه مصاعبه ومشاكله بكل ما أوتينا من ذكاء وقدرة متلمسين مصالح المجتمع والافراد الذين يعيشون فيه بل ننظر الى المستقبل متوجسين مستريبين بطرف عيوننا فقط متوجهين بكليتنا الى الماضي عسانا واجدين فيه نبراسا يهدينا سواء السبيل . فاذا وجدنا فيه هديا لم يكن ذلك صالحا للمشاكل الجديدة على اي حال واذا لم نجد فيه هديا بقينا نتعثر في سيرنا عازفين عن مواجهة حقائق الحياة وضرورات التطور المستمر والتغير المتواصل .

هذا ما يقولون وهم يقولون اكثر من هذا ولا شك ان الحوادث السياسية الاخيرة في العالم العربي قد جعلت الاوروبيين يضعون الامة العربية على منصة التشريح فلا تكاد تخلو مجلة او جريدة هذه الايام من تعليق او تحليل لناحية من نواحي المجتمع العربي .

وانا احب ان اقرأ آراء الاوروبيين عن العرب ذلك لان العين الاوروبية لها طريقة في رؤية الاشياء تختلف كل الاختلاف عن طريقتنا . ولهذا عندما اقرأ ما يكتبون عنا تنفتح أمامي آفاق جديدة وارى نفسي وأمتي على ضوء جديد وكأنني لم ارهما من قبل .

واجد مشاعري نحو تلك الاراء تسير في مراحل معروفة فالمرحلة الاولى هي مرحلة الغضب ذلك لانه دائما يخيل لي بان الكاتب ينوي التجني والتحامل ويقصد التجريح والاهانة واحيانا اقذف بالمجلة ارضا في سورة من الغضب وأمضي في طريقي الى أن اصل الى المرحلة الثانية عندما اعود الى المجلة فأكمل قراءة المقال ثم اعيد قراءته مرة ثانية واسائل نفسي هل نحن حقا كذلك ولو كنت غير عربي هل كنت أنظر الى العرب كما ينظر اليهم هذا الكاتب وهل من الممكن ان اكون أنا المتحيز نحو العرب لاني انا منهم « وقومي وان ضنوا علي كرام » . أما المرحلة الثالثة فهي عندما اقرر لنفسي قرارا موضوعيا قدر المستطاع نصيب المقال من الصحة ونصيبه من التحامل او المبالغة او التحيز .

أعتقد اننا كأمة نستفيد غاية الافادة من قراءتنا لآراء الاوروبيين عن العرب ويجب ان نفعل ذلك ولسان حالنا يقول كما قال ابو حيان الغرناطي :

عداتي لهم فضل علي ونعمة — فلا اذهب الرحمن عني الاعاديا
هم عرفوني زلتي فاجتنبتها — وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

لندن

فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى »



الدكتور محمد رجب البيومي

محنة قاسية يتجرعها أديب مريض

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

هي محنة قاسية دون شك ! كتب على السيد توفيق البكري ان يجرع صابها المرير منذ بدأ اختلاطه الذهني في اوائل سنة ١٩٠٩ الى ان لقي ربه في اغسطس سنة ١٩٣٢ .

ولو قدر على السيد ان يعالج في سراياه بالخرنفش تحت اشراف طبيب نفسي كبير ، يمهد له اسباب الراحة ، ويقابل تصرفاته المريضة بجميل الاناة وحسن الاحتيال ثم يعمل على تهدئته في جو آمن مريح ، لامكن حينئذ الا تجمع عليه آلام الغربة مع آلام المرض ، في مكان بعيد لا يرده احد من اصفياء السيد وعارفيه الا في النادر الشحيح ! ولكن الذين آثروا ارتحاله الى العصفورية بلبنان ، كانوا يرون ابتعاده هناك مما يتفق مع جلال مركزه ، وحسب اسرته كيلا يبدر منه ما تقع عليه أعين عارفيه في مصر ، فينتشر الحديث عنه بما يسيء ، فكان في اغترابه العلاجي بلبنان منجاة من الاراجيف المريضة ! هكذا قدر اصحابه ! ثم ذهبوا به حيث احكموا التقدير ! ومكث السيد في عزلته اليائسة ستة عشر عاما ! ذاق أهوالها المضنية لا اقول يوما فيوما بل دقيقة دقيقة ! ولم يرحه اثناءها الا بعض الذهول الشارد ، مما ينسى معه قسوة المحنة ورهبة النكبة ! وحسبك ان يكون الذهول نعمة مريحة لمن تفاقمت حوله المحن عن شمال ويمين !

على ان المحير العجيب في محنة السيد ، هو امتدادها المزعج على هذا النحو ، فمما كان يبعث على نجاح شفائه ان اختلاطه لم يكن كليا دائما تقف امامه حيلة الطب النفسي عاجزة يائسة ، ولكنه كان جنونا متقطعا ، كالحريق يخبو اياما كثيرة ويشب ساعات قليلة ! وقد يستعصي العلاج على الطبيب الحاذق اذا جهلت اسباب المرض ودواعيه ، ولكن الاسباب في محنة السيد كانت معروفة معلومة ومحاولة تحليلها والقضاء على تأثيرها مما لا يعد في باب المستحيلات ! لا سيما اذا كان المرض غير عضوي كما جزم مشخصوه !!

فالعلة الاصيلة في اختلاط السيد ، هي شعوره المتوهم بالاضطهاد من الخديوي ورجال القصر وتخيله مؤامرات تدبر لاغتياله يشترك فيها من يعلم ومن لا يعلم من اتباع عباس ثم تخوفه المذهل من ان يخسر سمعته ومنصبه حين تخلى عنه قصر الدوبارة ، اذ وفر لديه انه متهم في اخلاقه بعد دسيسة حفني ناصف ! وهي تهمة منكرة تكفي لان تلطخ سيرة ابعد الناس عن التمسك بالدين فما ظنك بشيخ مشايخ الطرق الصوفية وسليل بيت الصديق !! وكأني به وقد اختلط عليه النصيح بالمخادع ، والعدو بالصديق ، فلم يصغ الى مخلص يحاول ان يأخذ بيده في محنته ! ثم اشتد الوهم فأستعصى على العلاج !

وقد كان بلاء السيد حين ارتحل الى لبنان انه لم يجد من اطباء العصفورية من يبذل قصارى جهده في تفهم عقده ، واكتناه دخائله ، وكل ما استطاع هؤلاء ان يقوموا به هو ان يمهدوا له اسباب الراحة في المأكل والمشرب والمسكن ، وان يتركوه يتريض في حديقة المستشفى ! اما الحرص الجاد على استئصال الداء فيؤسفنا ان نعلن انه لم يتم على وجه صحيح ، لان اسباب الشفاء كانت ممكنة لو نهض بها الذين الموا بظروف محنته الماما دقيقا ، فمن الجائز ان يكون أطباء الرجل حين التحق بالعصفورية ــ وهم انجليز لا يعرفون شيئا عن دوره السياسي بمصر الا ما قدم اليهم من قشور لا تتغلغل الى اللباب ــ قد ساروا بالعلاج في غير وجهه الدقيق ، نجيز ذلك لان الظروف الراهنة قد ساعدت كثيرا على تيسير العلاج وتسهيله اذ ان الخديوي قد عزل نهائيا عن مصر كما ذهب كرومر وغورست وكتشنر ، واصبح قصر الدوبارة شيئا اخر غير الذي كان ، ! ومن المؤكد ان السيد البكري كان يقضي شهورا متصلة بالعصفورية هادىء النفس حاضر الذهن ، يقرأ الجرائد ، ويطلب الكتب وينظم الشعر احيانا ، ومن كانت هذه حالته فقد رجي صلاحه ان وجد الطبيب المتوعب المحيط ! وبخاصة اذا ساعدت الايام على استئصال بواعث القلق في مصر بخلع عباس ، وانقضاء التبعية العثمانية ، واستبدال رجال قصر الدوبارة باخرين !! وليس بالسيد آفة عضوية يرجع اليها الاختلال كما قال فاحصوه !

لقد ذكر الشاعر العربي الاستاذ فؤاد الخطيب انه زار السيد بالعصفورية وطارحه الادب والشعر ، واستمع الى ابيات نظمها السيد في منفاه يقول منها :

قد كنت احلم قبل اليوم في سنة فصرت احلم منذ اليوم يقظانا (١)

كما ذكر الاستاذ سليم سركيس في مقالاته التي سنشير اليها عن قريب ، ان السيد كان يقرأ الصحف ويرسل في طلب ما يريد من المجلات والكتب ، ويحدد مكانها وثمنها فلا يخطىء ! ومعنى ذلك ان جنونه الجزئي كان لا يعتاده الا على ابعاد ! فكيف فات اطباء العصفورية ان يستغلوا هدوءه الممتد ، فيستأصلوا عقدته السياسية بعد ان تغير كل شيء وذهب الاعداء المتوهمون .

تلك مسألة يجب ان تكون موضع التأمل ! ونحن نسجلها لا لننتقص اطباء العصفورية كما قد يطرأ على الذهن ولكن لنعلن ان استشفاء السيد بمصر كان اقرب الى النجاح منه في لبنان ، اذ ان انقطاع اطبائه هناك عن الاتصال المتكرر باقاربه واصدقائه قد ساعد على خفاء ظروفه ، وغموض دوافع مرضه ، ولو قدر له ان يعالج بالقاهرة لامكن اطباءه حينئذ ان يعلموا كل شيء عنه ، فعلى مقربة منهم جماعة من اقاربه واصدقائه المخلصين يسألون فيجيبون ، ويستوضحون فيشرحون . والطبيب النفسي في حاجة الى الالمام المسهب بأحوال المريض، ففي الكثرة الكاثرة من انبائه المختلفة ما يستشفمنها النطاسي البصير بوارق ترشده وتهديه ؟ وهناك تكون فرصة الشفاء اقرب منالا منها في معتزل نازح لا تصل اليه الانباء الا على ابعاد !

هذا ما يوحي به التفكير الواضح عند تأمل المأساة ! وان كان من غير المستبعد ان يكون اطباء العصفورية بذلوا كل جهد خارق دون جدوى، وهم بعد قد رأوا من تطورات دائه ما نجهله الان ونحار فيه ؟ الا ان ذلك لا يمنع القول بأن علاج القاهرة كان اقرب الى النجاح من علاج لبنان .. ولعله قد آن لنا ان نلقي بعض الضوء على حياة السيد في مغتربه البعيد .

من طبيعة الناس ان يفيئوا الى الصمت الحزين حين يعلموا ان انسانا ما قد نزل مستشفى الامراض العقلية ، فهم يتألمون له على البعد متحاشين ان يكثروا من الخوض في حديثه ، وقد يكون المرض خفيفا متوقع الزوال ، الا ان فزع الناس من الجنون يبكم السنتهم ان تسأل وتستوضح ، وكأن الجنون موت تنعدم فيه الحيلة فلا مجال للسؤال والاستفسار ! وهذا ما كان من امر المعارف والاصدقاء ـ دون الاقرباء طبعا فلهم حديث قريب ـ في مأساة السيد محمد توفيق البكري اذ لم يسافر الى لبنان حتى انقطع عنه حديث الناس في الاندية والصحف ، واذا تردد همس خاف حول مصابه دار في اقتضاب موجز مسترحم يختم بالدعاء والرجاء .. وقد طالت مدة الاستشفاء واستطالت دون ان يكلف الاصدقاء والاتباع انفسهم سؤالا قريبا يتوجهون به لدائرة الاختصاص عن حالة السيد ، وما ذاك لعقوق جاف ، او نسيان غادر ، وانما لتأكدهم بنتيجة السؤال ، اذ ان المريض لا يزال في مصحة الاستشفاء بين ايدي المهرة من الاطباء ، ولو تحسنت صحته وعاد الى طبيعته لرجع لتوه من معتزله ولكان رجوعه جوابا حاسما يقضي على كل استفهام ، اما وقد بقي في مستشفاه فلا مجال للسؤال ...

نقول ذلك ضاربين المثل بالاديبة الشهيرة والكاتبة اللامعة الانسة مي، فقد ابتليت بمثل محنة السيد واودعت مودعه من العصفورية ، وكان اصدقاؤها من صفوة اعلام الادب والسياسة والعلم والصحافة وقد مكثت بالمصحة عامين كاملين دون ان يجرأ احد من هؤلاء الافذاذ على السؤال عنها في مدى اربعة وعشرين شهرا ذات اسابيع وايام ، حتى اعتقدت فيهم العقوق والجفاء وجاهرتبذلك في حديث صحفي بالمصور ، ولكن الواقع المحرج انالمأساة تمنع السؤال والتردد ، فما مكثت الانسة الجهيرة بالعصفورية الا لانها في اعتقاد خلصائها المخلصين ترزح تحت كابوس الالم ! واذا كان الامر كذلك ففيم ابتذال الاحاديث بالاراجيف عن المع اديبة عربية سطعت بمصر في الثلث الاول من القرن العشرين ! وقد يكون مرض الانسة تدبيرا لئيما بولغ في تقديره ! ولكن من مبلغ اصدقاءها بذلك ، وهم يعلمون انها ممنوعة في المصحة بارادة الطب الفاحص الدقيق ، وتحت اسماع المهرة من النطاسيين وابصارهم ! مما ينقشع معه ضباب التهم والظنون !!

وقد يقول قائل ان الامر في مأساة السيد غيره في مأساة الانسة ، فقد طالت عليه دياجير المحنة واشتد هولها قرابة ستة عشر عاما تجرع غصصها في جحيم الاغتراب ، ولكن النظر المحايد يوحي بأن طول المدة لا يغير شيئا من واقع المأساة ، ! فالاصدقاء والاشياع يعرفون ان العلاج قد استعصى ، على الزمن الطويل اذ ان اطباء المصحة لم يسمحوا له بمغادرتها واذ ذاك فقد قطعتجهيزة قول كل خطيب ! وامتنع الاحراج بالسؤال !

على ان الظروف السياسية والادبية بمصر قدساعدت على نسيان السيد في محبسه من الجمهرة العامة لا من اصدقائه وعارفيه ـ وهم وحدهم من ندفع عنهم مظنة التقصير ـ اذ ان الحرب العالمية الاولى قد شغلت الناس عن انفسهم ، ودفعت الصحافة الى الانهماك في تتبع وقائعها ساعة بساعة ، وكان الاحتلال الاجنبي قد فرض الحماية على البلاد ، فجلب عليها كارثة اخرى فوق كارثة الحرب ، حتى اذا انتهى شرها الناجع قامت الثورةالمصرية بزعامة سعد زغلول ، وشغلت الصحف المصرية بأنبائها عن كل شيء وظهرت على المسرح السياسي وجوه جديدة ، كادت تطمس او طمست بالفعل ـ كثيرا من وجوه المسرح القديم ومنهم السيد توفيق ! واخذت وقائع السياسة واحداثها تفد بما لم يبق متسعا لتذكر كرومر وعباس

وعبد الحميد فضلا عمن كانوا يلونهم في الصفوف اللاحقة من المشاهير !

هذا في عالم السياسة ، اما في عالم الفكر ، فقد تطورت نظرات النقد الادبي في هذه الفترة تطورا جعل سمات المدرسة القديمة من الجزالة والاغراب والسجع تصبح موضع المؤاخذة والهجوم ، وظهر من النقاد من وضعوا موازين جديدة للكتابة الادبية اصبحت معها الاساليب القديمة غير ذات موضوع ! فلم يعد لاسلوب السيد البكري ومن حذا حذوه من الادباء ذادة وحماة ، بل اتجهت الانظار الى اسلوب سمح مسترسل كان من الاسلوب الاول بمنزلة النقيض من النقيض ، وقد ساعد ذلك على هجر آثار السيد البكري ونسيان ادبه الا لدى القلة من تلاميذ القرن الماضي وعشاق ادبه ، فلم يعد احد يتحدث عنه كأديب مرموق ! وهكذا اصبح الرجل في مغتربه النازح بعيدا عن ان يصطرع حوله الجدل في امور السياسة والادب ! فضاعف ذلك من تناسيه ، وهكذا الدنيا !

اما اقرباؤه الادنون ! فموقفهم في هذه المحنة لايخلو من تثريب ، وقد انهال الكتاب لوما وتعنيفا ومؤاخذة للسيد عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية وابن اخيه ان ترك عمه في منآه دون قيام سريع بمطالبه المالية ، وضجت الصحف اليومية والاسبوعية بالتشهير والتجريح لشيخ المشايخ عقب مقالات كتبها الاستاذ سليم سركيس سنة ١٩٢٣ عن السيد محمد توفيق حين زار العصفورية . واستمع الى شكوى القائمين عليها من كثرة ديون تراكمت على عميد البكريين دون ان تسدد ، وقد هالت هذه الحقيقة المفزعة الرأي العام في البلاد، فخرجت صحيفة المحروسة ٩ — ١١ — ١٩٢٣ تطالب باكتتاب عام للنفقة على السيد في مستشفاه ، وتوجهت جريدةالصاعقة الى مطالبة الملك فؤاد بالتبرع للرجل المريض حفظا على كرامته ! وقد اضطر السيد عبد الحميد البكري ان يكذب ما قيل عن تقصيره في واجب عمه ، ولكن مراجعة الوثائق المالية ، ومتابعة اقوال رجال المصحة ببيروت قد ادانته ادانة كانت غير منتظرة من شيخ مثله وسنحاول ان نوجز الحديث عن هذه المأساة متألمين !

حين سافر السيد محمد توفيق البكري الى العصفورية اقيم مقامه في مشيخة المشايخ الكبرى ابن اخيه السيد عبد الحميد البكري ، وهو ما لم يكن ليتاح له لو بقي السيد توفيق سليما معافى في بدنه وعقله ، ومهما أسف الشيخ على مصاب عمه فان فرحته بالمنصب الجديد لم تكن لتبقى هذا الاسف على مرارته ولذعه ! اذ لو بقيت مرارته اللاذعة ما اضطرت المستشفى الى الشكوى الصارخة من تأخر نفقات السيد ، والمريض بعد ذو مال وعقار واوقاف ، فأين واجب القرابة والدم ان لم يكن واجب الانسانية والاخلاق والدين عند شيخ مشايخ الطرق !

لقد كان دفاع السيد عبد الحميد البكري عن نفسه مركزا في محاولة تكذيب الاستاذ سليم سركيس واتهامه بالاختلاق ، ولكن الامر بعد مواجهة الرأي العام بمقال السيد سليم سركيس وهياجه المغيظ لحقائقه الاليمة لم يعد منحصرا بين سركيس وعبد الحميد، بل تطلب الرجوع الى الجهة المسؤولة رأسا . . . ومن الذي يرجع ؟ ان الذين تأثروا بالمحنة قد اكتفوا بالضجيج على صفحات الجرائد والمجلات المصرية مشهرين بشيخ المشايخ، وقد التزم الشيخ جانب التكذيب ، وابدى صورة زنكغرافية لايصال بعث به الى المستشفى بمبلغ مائتين وخمسين من الجنيهات ! وكأنه الحجة الدامغة على ان الشيخ قد سدد كل ما تتطلبه اقامة دائمة في اكثر من عشر سنوات ! وامام هذا الايصال العجيب قد اضطر الاستاذ سليم سركيس ان ينشربالاهرام حديثا صحفيا مع مسؤول كبير في مستشفى العصفورية وتحققت الاهرام من مصدره فعلمت انه صحيح لا زيف به فنشرته بعد تلكؤ مقصود اذ ان السيد عبد الحميد قد بذل وساطته المستميتة لدى الاستاذ داود بركات ، ولكن جريدة الصاعقة وجرائد اخرى قد توسعت في التعليق ، واشارت الى امتناع الاهرام عن النشر فأجبرتها على ذلك بعد انتظار بغيض ، ثم اعاد الاستاذ سركيس نشر حديثه بعدد خاص من مجلته (سركيس ديسمبر سنة ١٩٢٣) وقفه جميعه على ايضاح المأساة، وبمراجعة حديث المسؤول الكبير في العصفورية يتضح لنا ما يلي :

١ — ان سليم سركيس لم يكذب في شيء بل قصد خدمة السيد توفيق نفسه ليتمتع بالراحة والرفاهية وقد رآه السيد المسؤول يبكي من فرط تأثره حين شاهد السيد رث الهيئة ممزق الثياب .

٢ — ان تكذيب السيد عبد الحميد جراة لم يسمع بها المسؤول الكبير في حياته فان دين المستشفى يزيد عن الالف من الجنيهات ، ولديه الدفاتر واصول المكاتبات الخاصة بطلب الديون المتكرر .

٣ — السند الذي قدمه السيد عبد الحميد بمبلغ ٢٥٠ جنيها صحيح ولكنه عن مدة قديمة ، لذلك لم يذكر تاريخه، ولم تحصل المستشفى على هذا المبلغ الا لاضطرار السيد عبد الحميد للحصول على شهادة طبية بحالة عمه ليقدمها الى المجلس الحسبي كي يتصرف في اموال المريض .

٤ — جرت اتصالات بالمندوب السامي بمصر لتحصيل المبلغ كما رفعت شكوى الى القضاء ووكل فيها محام معروف !

٥ — ان الملابس الرثة التي يرتديها السيد توفيق قد اضطرت اليها المستشفى لان اقارب السيد بمصر لايرسلون اليه مالا او ملبوسا ، والمستشفى تقدم له الطعام بعناية نظرا لحالته الصحية ولكنها لا تهتم بالملبس الرث وتكتفي

بالصاقة بالدبابيس .

٦ ـ ان جنون السيد لا يسمى جنونا بالمعنى المعروف فهو مفكر اديب ، حافظ لكثير من قواه ومواهبه يتحدث حديث العقلاء ، وله آراء خاصة في الشؤون السياسية، يكثر من المطالعة ، ويدفع من حين لاخر قائمة كتب يطلبها من بيروت مبينا مكانها ومطبعتها فتكون بياناته صحيحة.

٧ ـ اضطرت المستشفى ان تمنع كثيرا من مطالبه وان تخفض نفقاته ما امكن بحيث لا يعطى الا ما هو ضروري للحياة عندما رات شح آل البكري وصعوبة الحصول على نفقات معقولة منهم .

٨ ـ السيد دمث الاخلاق محبوب لطيف الحديث لذلك يحتل كرامة خاصة بين زملائه وحديثه دائما مع الاطباء بالفرنسية ، وهو يطالع جريدة لسان الحال البيروتية ، وقد قرأ اخيرا مقالا عن ادبه كان مبعث سروره كما انه يتجول دون رقيب او محافظ ولو اراد ترك المستشفى لاستطاع دون ان يشعر به احد .

هذه اهم النقاط المؤسية في حديث المسؤول الكبير بالمصحة ، ولن تتم الصورة الحقيقية للسيد في منفاه ـ هكذا تحولت المصحة الى منفى ـ الا بتسطير فقرات من المقال الذي نشره الاستاذ سليم عن السيد توفيق بجريدة الاهرام سنة ١٩٢٣ فكان اول صاعقة قرعت الاسماع عن الرجل بعد صمت طويل ثم اعاد نشره بمجلة سركيس اكتوبر سنة ١٩٢٣ تحت عنوان صوت من قبر الاحياء ـ قل لابن اخي قال الاستاذ سليم ـ اجزل الله ثوابه .

« رايته فأعجبت ! شباب ناهض ، زي حسن ، جبة طالما لمست الجماهير اطرافها تبركا ، عمة طالما انحنت لها الرؤوس احتراما وتكريما ...

سمعته فطربت ! ينشد شعرا ناظر فيه فحول الشعراء ، ويرسل نثرا في صهاريج اللؤلؤ فكأنه انفاس العشاق .

وزرته ففاخرت ، في سراي الخرنفش ، عاصمة في عاصمة ، قصر يفاخر بتاريخه وزخرفته افخم القصور !

ورافقته في عربته ، كل خطوة ترتفع الايدي لتحيته وتحني الرؤوس .

كذلك كان سماحة السيد محمد توفيق البكري الزعيم الديني الشاعر المجيد الناثر البليغ جليس الملوك والامراء ، وكان كذلك في سراي الخرنفش في مدينة مصر

ثم انقضى احد عشر عاما ورأيته في اكتوبر سنة ١٩٢٣ فأجفلت ، وذعرت ، خفت ، بكيت !! نعم بكيت بكاء مرا ، فاستغرب رفاقي ان ابكي ، ولكنهم لم يشعروا بما شعرت به لانهم لم يعلموا ما علمت ، لم يروا الرجل في سراي الخرنفش بل رأوه في العصفورية !

اما انا فقد رايته في حالي نعيمه وبؤسه فبكيت اذ رأيت القبر المتحرك جسم السيد البكري وقد نزعت منه تلك الروح الزكية ومن الذي لا تبكيه القبور .

اقبل الحاجب يأمر شبحا ان يتبعه فيصدع بأمره ، وقال رفاقي : جاء صاحبك البكري اقبل يمشي على مهل، تلك عادته ، اقبل رافعا رأسه محدقا ببصره ، تلك عادته ثم لما صار على مسافة خطوات مني ، رآني وكأنه تبينني فعرفني ، فأخذ يمشي على مهل ، ونكس رأسه حتى اقترب مني ففض بصره ، واغمض عينيه ووقف امامنا خاشعا .

فجرى لنا الحديث الاتي :

ـ اهلا بمولانا السيد ، كيف حال سماحتكم ؟

ـ بخير والحمد لله

ـ انا قادم من مصر لازوركم

ـ شكر الله فضلك

ـ اتذكرني يا مولانا ؟

ـ نعم أذكرك وأذكر أيام المؤيد

ـ هل انت مرتاح هنا ؟

ـ لا بأس !

ـ هل يسمحون لكم بالمطالعة ؟

ـ ليس لنا وقت !

ـ أتنظمون شيئا من قبيل (أول خيط الكفن ...)

ـ فضحك وقال : لا

ـ هل تذكرون كتاب (صهاريج اللؤلؤ) ؟

ـ كيف لا ؟

ـ أتأمر بشيء اخدمكم به ؟

ـ شكر الله فضلك

ـ أترغبون ان ارسل لكم بعض الكتب ؟

ـ ليس لدينا وقت

ـ وبماذا اقدر ان اخدمكم بمصر ؟

ـ لا حاجة فقط ارجو ان تقول لابن اخي عبد الحميد ان يأتي او يرسل من يأخذني من هذا المكان فلم تبق حاجة لبقائي .

كل هذا ، ولم يفتح عينه ولم يرفع رأسه ، ولا نظر الي او الى رفاقي ثم قال استأذن الان !

وانصرف فمشى مطرقا بعض خطوات ثم انتصب ورفع رأسه ومضى يضرب الارض بعصا في يده اليمنى ، واما يده اليسرى فكانت قابضة بعنف وشدة على قطع مكسورة من مرآة ، سألته ما الفرض من المرآة في يدك فقال انها نافعة لي ، واخبرني الحاجب ان المرآة ملازمة له لا يتركها لانها في زعمه تطرد الابالسة .

ثم قال الاستاذ سركيس : رأيته وكيف رأيت ، حذاؤه ضخم ، اقبل وعليه جبة رثة صفراء اكل الدهر عليها وشرب ، يليها شبه قفطان او قميص نوم عادية ،

---

(١) مشاهير شعراء العصر جمع احمد عبيد بدمشق ـ ترجمة السيد البكري . (٢) الساعات الاخيرة ص ٨٢ (٣) المنار : مجلد ٣٢ ص ٧١٧ اكتوبر سنة ١٩٣٢

وعلى رأسه طاقية لا تقي من الحر والبرد شاب شعر رأسه وطال شعر ذقنه .

الجنوب غضب من الله تعالى ولكن ! اين تلك القفاطين والجبب ؟ واين هاتيك القيافة؟ واين تلك النظافة؟ يجب ان افتتح اكتتابا فأجمع من الشارد والوارد ثمن ثياب نظيفة للسيد محمد توفيق البكري !! ا هـ

ليس المقال بحاجة الى تعليق ، فقد اعقب ضجة كان من الواجب ان تحدث ، وقد اسهم الكاتب الفكاهي اللاذع الاستاذ حسين شفيق المصري في الضجة على صفحات جريدة السيف فأضاف الى النار نفطا يزيد الاشتعال ، كما قامت مجلتا الصاعقة والمحروسة بثورة هزت شيخ المشايخ وازعجته وما بنا ان نطيل في حديث عرف فحواه، وان تسطيره لما يوقد الشجن في الضلوع ! ومهما حاول السيد عبد الحميد البكري تبرير موقفه من عمه ، فيكفي ان نعلم انه لم يزره مرة واحدة مدى ستة عشر عاما قضاها في منفاه ! وانه منع عنه ماله وخيره ، وتركه حديث الصحف والافواه ! ومظنة التبرع والاكتتاب !

مهما يكن من شيء فقد آنت ضجة سركيس أكلها ، فاضطر شيخ المشايخ بعد خمسة اعوام ان يفسح بمصر مكانا لعمه الكبير ، فعاد الرجل الى موطنه سنة ١٩٢٨ ضعيف القوى ، متهالك البناء حزين الشحوب ! الا في فترات يفيء فيها اليه صوابه فيتحدث عن غابر سعده وماضي مجده ، وكان يترحم على الراحلين جميعا من خصومه ، حتى اذا جاء ذكر محمد عبده قال عنه فيما روى الاستاذ طاهر الطناحي (٢) .

« احب ان يذكر عني كل من يعرض للكتابة في هذه الحادثة اني اخطأت ، واني آسف لهذا الخطأ » يقول السيد محمد رشيد رضا عن ايامه الاخيرة في تأبينه بالمنار (٣)

وعاد منذ بضع سنين للقاهرة فانقطع في مكتبه للمطالعة والكتابة زاهدا في المزاورة والمحاضرة والمناظرة على انه وهو لم يبل من مرضه كل الابلال ظل حاضر الذهن قوي الذاكرة صائب الرأي صحيح الحكم فيما يخوض من مسائل الادب والعلم وانما كان يعثر فكره ويأفن رأيه في امر واحد سياسي هو الذي كان سببا في مرضه ذاك ، فقاتل الله السياسة وفتنتها ، فهي التي اضاعت عليه وعلى الامة الانتفاع باستعداده النادر في مركزه الرفيع ».

واذن فالرجل كما يقول الشيخ رشيد والاستاذ الطناحي كان هادئا طبيعيا في اكثر اوقاته بعد مجيئه ! وكان على من بقي من لداته ان يحتفلوا بعودته ، فيكتبوا عنه ، ويدرسوا ادبه ليعيدوا اليه جانبا من السرور كان يعوزه دون نزاع ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ! بل ان الذي حدث هو ان مجلة المقتطف نشرت في سنة ١٩٢٨ مجلد ٧٢ ص ٧٦ مقالا يتضمن ذكريات تاريخية تحت عنوان « الراحلون » بقلم يوسف حمدي يكن وقد بدأه ـ يا للعجب ـ بالسيد محمد توفيق البكري قائلا « وهو الان في حكم الراحلين ! فيا لها قسوة جائرة ! غفل عنها صاحب المقال او تعمدها غير موفق ثم قبلها صاحب المقتطف فنشر المقال بعنوانه الاليم ! والذوق شيء ليس في الكتب كما قيل ، ولئن كان السيد البكري قد واصل المطالعة ـ كما قال السيد رشيد ـ فكيف يكون شعوره وهو يقرأ حيا منعاه ، ويرى المثال الصارخ لمجافاة الذوق والاحسان !

ولعل القدر كان أرأف به حين اختاره الله الى جواره في ١٣ اغسطس سنة ١٩٣٢ ، وهو العام الادبي الحزين الذي بدأ بحافظ وثنى بالبكري وثلث بشوقي ! وقد دفن الرجل في غير ضجة ، فلم يتبعه الى مقره الاخير غير افراد ، وهو موقف أسف له صاحب المنار في مقاله السالف فتساءل عن الوفاء ، ولعل من العزاء للسيد البكري ان يترك ضيق الحياة الى سعة عفو الله ! وان يدع دنيا تقلبت على عينه حتى رأى صدقها كذبا ـ كما قال ابو الطيب ـ الى رقدة هادئة يستريح الجسم فيها كما قال ابو العلاء !!

يرحمه الله !

الفيوم ـ دار المعلمات

محمد رجب البيومي

لبنان

لبنان هذا الجبل الوضاح
هذا الجبين الابيض اللماح
حدوده الغيوم والرياح

هنا هنا الاضواء والالوان
هنا هنا الكروم والدنان
والياسمين الحلو والمرجان

حقوله ما نثر الفلاح
رياضه ما نظم الصداح
جنانه ما تشتهي الارواح

هنا هنا العيون والغدران
والزنبق الريان والرمان
جنان خلد هكذا الجنان

وديع ديب



نظير زيتون

تحية لروح نظير زيتون

★ ★ ★

عرفتك في الدنيا نظير بن زيتون   أديبا سما في الخلق والفن والدين

لعينيك آماد كان دروبها   مضت نحو الحان تناغت بمجزون

فيا هاتفا خلف الوجود أطف به   على نهر تخليد حلا بالرياحين

كما طاف فرجيل بدانتي ، فانه   لدى العرب ذو فن يموج بمفتون

أبا النثر في سجع كوشي عرائس   تفديك اقلام تناهت بتفنين

سكبت على شعري بملحمة الملا   ثناء يكافيني بجهدي ومكنوني (1)

بنثر كان الدر احرف لفظه   أمن أنجم ألهمت أم من بساتين

أيا راهب الفكر المجلي بيانه   أعشت بلا ولد وزوج كمغبون

تركت كتابات كنسل مسلسل   به الولد خفاق وزوج من العين

أرى حمص قد ضمتك في قلب تربها   ولكن دمشق قد حوتك بتحنين

سآتي الى الميماس أنشق زهره   بفنك في الاهل الكرام الميامين

وأقرأ أيات على الجدث الذي   يضمك في عود الى الماء والطين

أتينا الى الدنيا لنحيا بسرها   ونضحك في حزن كضحكة مجنون

عليك سلام ان ما هبت الصبا   بحمص وما يحيا بها آل زيتون

دمشق   زكي المحاسني

(1) « الاديب » عدد مارس ١٩٦٥



بقلم حسني سيد لبيب

تفضل سيجارة .. لا تدخن .. اوه ، خيرا فعلت ، لكني أود أن تشاركني في التدخين . سيجارة واحدة فقط ، لن تؤثر ولن تضر .. خذ .. يبدو عليك الملل ، ويبدو انك قليل الترحال .. اما انا فحياتي اقضيها هكذا .

لا شك انك تود ان تعرفني ، أنا ناظر محطة بنها ، وسابقا ناظر محطة الزقازيق التي قضيت فيها عشر سنوات

في البداية ، تضايقت من طبيعة العمل ، لكني بـدات حينذاك ازن الامور بميزان دقيـق . حاولت ان أستقر ، فتزوجت امراة من بلـدة لم تسمع عنها او ربما سمعت .. لا يهم .. مـن « ميت يزيد » .. بلدة صغيرة في خط الزقازيق ، تليها محطة مينا القمح . أوه لا تؤاخذني ، فهذا حديث خاص بالمهنة لا يطرب له كثير من الناس . لنتكلم في «الكورة» انا اهلاوي متعصب .. ولا تفوتني مباراة الا وشاهدتها او سمعتها في « الراديو » . بيني وبينـك ، قد يتحكم في نتيجة المباراة شيء خفي اسمه الحظ ، تأتي من اهون سبب .. لعبة سهلة وغير مقصودة قـد تحرز هدفا ، ولعبة قوية سليمة قد تخطيء طريقها .. شيء اسمه الحظ .. أنا أدرى به ، فهو الذي حـول دفة حياتي ..

كنت اتمنى ان ادخل الجامعة . حصلت على التوجيهية . وفجـأة مرض ابي ، وازدادت وطأة المرض عليه ، فاضطررت ان أؤجل سفري الى مصر .. وبالمناسبة ، انا مـن الزقازيق . المهم ، قررت أن اعمل ، فأبي أقعده المرض ولا فائدة ترجى من علاج المستشفيات الميرى . توسط لي خالي فعينت صراف تذاكر فـي محطة « ميت يزيد » . استمالتنـي فتاة ريفية من هناك . لا تؤاخذني ، يبدو اني سأحدثك عن نفسي . لا بد أن أتكلم ، فالسفر شاق بطبعـه ، والكلام يهون علينا متاعبه .

قبل ذلك ، كنت أتكلم عـن دور الحظ في مباريات الكرة . آخـر مباراة شاهدتهـا أثارت دهشتي وعجبي .. كان هجوم الاهلي شديدا على مرمى الترسانة ، لكنها مسألـة حظ . خسرنا نقطة .. لكن لا بد أن نأخذ الدوري . النتيجة ليسـت مهمة ، الاهلي في نظري هو الفريق الاكفأ ، وهو الجدير ببطولة الدوري. ماذا تقول ؟ .. أنا أهلاوي متعصـب .. انا فعلا كما قلت ..

اف .. منظر الصحراء كئيب . ماذا يفعل انسان يجد نفسه وحيدا في مثل هذه الصحراء الصماء ؟ . انظر .. صحراء موحشة قاتلـة . واجهت مرارة العيش في مثل هـذه الصحراء ، لاول مرة ، عندما عينت بدلا من معاون محطة . كنـت قـد حصلت علـى ترقيـة .. لا داعي للتفاصيل .. كان ذلك في الليـل ، والصمت هو لغة الطبيعة ، بينمـا داخلي يغلي ويتميز غيظا . لم انـم ليلتها ابدا . اغمضت عيني كمحاولة لانتشال نفسي من تلك الوحشـة الكئيبة ، لكن حتى المحاولة لم تنجح، فازداد خوفي . بحثت في حقيبتـي الصغيرة عن كتاب أتسلى به ، وجدت كتابا قديما غلافه منزوع .. لا اعرف اسمه او اسم مؤلفه . قـرات ، فاستشعرت الملل . كان كتابا فلسفيا لسوء الحظ . ضحكت من أعماقـي عندما قرات فيه أن يجب على الانسان أن يثبت وجوده ، أيا كانت الظروف التي يتواجد فيها . ضحكت فـي سخرية ومرارة . أنى هو وجودي في هذا اللاوجود ؟! .. لا أحد هنا .. فكيف يتأتى لي أن أثبت وجودي مثلا ، وانا أكلمك ، نستطيع ان نؤمن بمثل هذا الكلام ، أي عندما نكـون متعايشين مع الاخرين . أنا لا أفهـم كثيرا في الفلسفة لكني افهم في الكرة

يبدو عليـك انـك مـن مصر . زملكاوي انت أم اهلاوي ؟! . تقول ماذا ؟ .. لا .. لا تفهم في الكرة .. اوه .. اصبت .. لا تدخن ولا تفهم في الكرة ، شيء جميل . لقد نجوت مما يقيد الانسان . فالتدخين قيـد لا انفكاك منه ، يدخن الرجل وفـي كل سيجارة يشعلها يحس بالنـدم كأنه اقترف جريمة . كذلك الكـرة .. احيانا العـن تعصبـي للكرة . وزوجتي تلعن تعصبي هذا . وهذا هو السبب في تشجيعي المتزايد للكرة ! .. مسألة عناد .. أعرف ذلك ..

لا تؤاخذني علـى كثرة الكلام ، فالسفر شاق بطبعه ، ولا بد من ان نتكلم . ذات مرة طلبت مني زوجتي أن أذهب معها لزيارة امها . كـان موعد المباراة قد أزف . رفضـت طبعا . لكنها صممت على رأيها .. وازاء رفضي ، اضطرت للذهـاب بمفردها. اصطحبت معها «دقدق» . كان ولدا شقيا .. الله يرحمه .. أصله مات .. مات ازاي ؟!. مات في نفس اليوم .. انتهت المباراة، فاذا بي أفجأ برسول يخبرني باصابة دقدق في حادثة . الله يرحمه .. انه ابني الوحيد . وفي نفس اليوم المنحوس مات والدي .. صدق من قـال ان المصائب لا تأتي فرادى .

وظلت زوجتي تؤلمني بكلمات قاسية جافة ، وتدعي ان اهمالي هو السبب .. فلو كنت ذهبت معها ، ما الـم بنا مكروه . مسكينة زوجتي ، فهي لا تدرك انها مسألة أعمار ، وقضـاء وقدر .. مثل الكرة ، مسألة الحظ . .. بالمناسبة ، أهملت الكرة بعد ذلك



فترة من الزمن . عبثت في غرفة والدي بعدموته ، فعثرت على مجلات وكتب سياسية قديمة . كان والدي مهتما بالسياسة ، ويقرأ اخبارها بوعي وبصيرة . كان والدي يفهم في السياسة جيدا ، مثل فهمي للكرة . اهتممت بمتابعة السياسة وتقلباتها، فوجدت السياسة على ما يرام . رجعت ثانية لمشاهدة مباريات الكرة ومتابعة اخبارها فانا لا أفهم غيرها.

كم الساعة الان ؟ . أوه ، الوقت يمر بطيئا . لم أقل لك عن وجهتي ، انا ذاهب الى « ميت يزيد » لارى زوجتي . اصلها يا سيدي غضبانة . مر اسبوع لم أرها فيه . لا بد ان أصالحها . خدعت نفسي وحاولت ان اقنعها بالحياة دونها ، لكنني عجزت .. اخذت اجازة من عملي كي اذهب اليها واصالحها . امرأة غلبانة ، حساسة جدا .. تنفعل لاتفه الامور ، وانا دائماغلط . تقول ماذا؟ تسأل عن .. عن السبب ؟. سبب تافه لن تصدقه ، فهي دائما تنصحني بأن اتعقل قليلا ، واتحرز في معاملاتي . لكن هذا كما ترى لا يتفق مع **طبيعتي ..**

تفضل سيجارة ، خذ لاجل خاطري .. لن تؤثر .. مسكينة زوجتي ، الا تعلم اني أصبحت ناظر محطة بتصرفاتي هذه ؟ . أوه .. انها ريفية ساذجة ، لا تفهم كثيرا .. ولو انها تصعب علي احيانا ، واحس انها على صواب . شيء غريب في نفسي يناصبني العداء ، احيانا أقضي عليه واخرى اطيعه . فكرت في تطليقها. لا تدهش .. فعلا .. الطلاق شيء خطير ولا يجدر بنا ان نتورط فيه . لكنه مجرد تفكير ، تراجعت عنه عندما احسست ان الناس تقدر زوجتي . ولم يقتصر الامر على التقدير ، وانما تعداه الى ادعاء انها بانية مستقبلي . عجبت من الناس ، انهم يهتمون بالشكل ، بالمظهر الخارجي ، بالصورة .. الاعجب من ذلك ان زوجتي تنكر هذا الكلام ، وتصدع دماغي بتوافه عن الحقيقة والصراحة والضمير !. وما يلبث البيت ان يتحول الى جحيم لا يطاق، فأترك لها البيت وأخرج . انها امرأة ريفية لا تفهم الحياة جيدا !.

أشعر بالملل والرتابة ، الزمن يمضي في تثاقل مضجر . هذه السفرية بالذات متعبة لي . لن استريح الا عند وصولي « ميت يزيد » . ربنا يهون .. نسيت أن أسألك عن وجهتك .. ماذا ؟ .. ميت يزيد !. أنت ايضا !. أوه .. لا تؤاخذني .. قد اندهشت حقا ، فلم يدر في خلدي انك ستستمر معي ولن تتركني . شيء جميل ان تنزل معي في نفس المحطة ، فنادرا ما يتفق الناس . على العموم ، هذا فأل طيب استبشرت به .. فأنا أحب الناس ، واكره الوحدة. انامسرور جدا لرفقتك

لا غنى لي عنها ، فهي التي تجعل لحياتي قيمة . الحياة بدونها تفقد طعمها الحلو ، وجمالها . لا بد منها ، صحيح اننا نختلف كثيرا ، لكن لا ضير .. فهذه هي سنة الكون ولا بد من الاختلاف . تسأل : من اقصد ؟. اقصد زوجتي طبعا . آه من الذكريات !. الان فقط تذكرت دقدق . فعلا ، كان ينقص الولد شيء من الحنان ، حتى يحس بقيمة حياته ، ووجوده . لا احب الفلسفة ، هذا تعبير صادق عما في نفسي .

أحس كلما اقتربت من « ميت يزيد » اني سأرى دقدق !. فصورة زوجتي هي نفسها صورة ابني دقدق . الصورتان متشابهتان . أعرف ان دقدق مات ، لكن ما رأيك في احاسيسي الغريبة ؟! .

ارتفعت مكانتها عندي ، فالفراق علمني اشياء كثيرة . لقد اعددت لها مفاجأة جميلة .. اشتريت لها ساعة . صحيح انها لا تعرف كيف تحسب الوقت ، لكنها ببداهتها تقدر قيمته ، فلا يهم اذن حساب الوقت. ماذا تقول يا سيدي ؟ . تقترح علي ان اعلمها حساب الوقت ؟ أوه ، بالطبع سيحدث هذا . ان كلامي مجرد وجهة نظر ، لكن بالطبع سأعلمها ، ولو انها لن تسر كثيرا بالهدية لا سيما حين تعرف ثمنها .

أشعر بالارتياح لمجالستك ، فأنت رجل مهذب . الكلام افضل من الصمت ، ماذا تقول ؟!. الساعة الان الخامسة والثلث ! .. كيف ذلك ؟ .. القطار يصل « ميت يزيد » في الرابعة تماما . انا ادرى بالمواعيد ، اني احفظها عن طيب خاطر مثل عناوين الاصدقاء . القطار يقف ! .. نحن في الاسماعيلية ! .. كيف حدث هذا ؟! . ألم يقف القطار في « ميت يزيد » ؟! . كيف لم نشعر ؟! أنا اعرف « ميت يزيد » جيدا . كيف لم أفطن للامر ؟! وانت ، الست من « ميت يزيد » ؟! . كيف لم تنتبه ؟! .. هل يبدو عليك الاجهاد ؟! .. غير معقول هذا .. لن اقابل زوجتي ، ولن اراها . والساعة ! .. ما العمل ؟. ماذا تقول ؟ .. تقترح ان نعود ادراجنا في اول قطار ... فكرة صائبة . لكن ! .. انا الان في محطة الاسماعيلية . ماذا يقول موظفو المحطة ؟. لن اقول بالطبع اني لم افطن للامر ، فهذا امر بعيد عن التصور . وايضا غير معقول ان اتحجج بأني كنت نائما في القطار . لا عليك من كل هذه الافكار المقلقة . من الممكن ان نتصرف . ويجب ان نتفاءل دائما . سأسلم على صديق قديم يعمل هنا . سيفرح كثيرا بزيارتي . وسأعرفك به .. انها فرصة طيبة . نزلنا في الاسماعيلية بدلا من ميت يزيد .. لعب الحظ لعبته التافهة ، مثل الكرة تماما . المهم ان نتصرف .. ان نتصرف .. قد قلت لي انك من « ميت يزيد » ، اذكر ذلك . اذن انت تعرف زوجتي .. اسمها نفيسة خالد .. الا تعرفها؟ .. كيف ذلك ؟ ! . . شيء عجيب! .. سيادتك من ميت يزيد ولا تعرف نفيسة خالد !! .

القاهرة حسني سيد لبيب

اضواء جديدة على نشوء فن المقامات

بقلم الدكتور فيكتور الكك

من اساتذة الفارسية في الجامعة اللبنانية

* * *

س ـ من المعروف ان بديع الزمان الهمذاني هو اول من ابتكر فن المقامات ونهج نهجه . اكن فريقا من النقاد ، ذهب الى القول انه قلد في صنيعه ابن دريد . فما موقفكم من هذين الرأيين ؟

ج ـ لسنا نعرف احدا ممن تقدموا الهمذاني زمنا نسج كاتبنا في مقاماته على منواله ، ففن المقامات فن ادبي جديد نشأ مع بديع الزمان ، وقد اقر له بفضل السبق اشهر من عرف بفن المقامات من بعده وهو الحريري ، وذلك في مقدمة مقاماته . ويذهب هذا المذهب ايضا كثيرون من اهل التصنيف والتأليف كابن خلكان والقلقشندي

س ـ وعلام عول المنكرون لمقالة هؤلاء الاعلام ؟

ج ـ ان الذين عارضوا في نسبة اختراع المقامات للهمذاني رددوا ما قاله الحصري في كتابه زهر الاداب حيث زعم ان بديع الزمان قلد في صنيعه ابن دريد (المتوفي ٣٢١ هـ ـ ٩٣٣ م) في احاديثه الاربعين فعارضه في اربعمائة مقامة .

س ـ ومن هم هؤلاء المعارضون ؟

ج ـ في طليعتهم المستشرق مرغليوث ثم الدكتور زكي مبارك .

س ـ وماذا يقول الدكتور زكي مبارك بهذا الصدد ؟

ج ـ يزعم الدكتور زكي مبارك ان الذي اذاع هذا الغلط ثم آمن به الناس هو الحريري ، وان غفلة مؤرخي الادب عن كشف هذا الخطأ ان ابن دريد سمى قصصه احاديث في حين ان بديع الزمان سمى قصصه مقامات .

س ـ ولم لا يبدو قول الحصري الذي ردده مرغليوث ومبارك معقولا ؟

ج ـ الجواب على هذا السؤال ذوشقين الاول يتعلق بالحصري نفسه اي بالنقد الخارجي لهذه المسألة والثاني يتعلق بمضمون احاديث ابن دريد ومقامات الهمذاني وهو ما يعرف بالنقد الداخلي .

س ـ وماذا بشأن الحصري ؟

ج ـ اما الحصري فلا يمكن الاعتماد على رأيه لاسباب كثيرة منها : ان الحصري انفرد بهذا الخبر ولم يشاركه فيه احد من قدامى المصنفين والمتبادين فلم يذكر الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » شيئا من هذا القبيل مع انه عاصر الهمذاني وعرف نثر القدامى والمحدثين وشعرهم .

ثم ان الحصري رجل من اهل القيروان لم يعرف عنه رواية ولا سند ولا رحل الى العراق . فكيف يعارض البديع اربعين حديثا باربعمائة مقامة شرقت وغربت كما يقول المرحوم الرافعي ثم لا يستفيض ذكر هذه المعارضة في كتب المشرق ولا تراه منقولا الا عن رجل من اهل القيروان لا رحلة له ولا سند ولا رواية وانما يستطرف من كل كتاب ومن كل خبر ؟

س ـ ما دام الامر كذلك فكيف تتعارض نتائج النقد الداخلي للمقامات والاحاديث مع راي الحصري والواقع ؟

ج ـ ان الناظر في احاديث ابن دريد ومقامات الهمذاني يرى ان المقامة فن جديد قائم بذاته في حين ان الاحاديث لا تعدو ان تكون مجموعة حكايات .

ـ فللمقامات راوية واحد وبطل واحد اما الاحاديث فابطالها متعددون مختلفون في البيئة والتاريخ .

ـ ان غرض ابن دريد هو الاشادة بمناقب العرب وشمائلهم ورسوخ قدمهم في البلاغة ـ وليس في المقامات شيء من ذلك بل كدية واحتيال .

ـ ان الفن في المقامات ارقى منه في الاحاديث صياغة ولغة وحسن رواء لانها الفت للبلغاء من الخاصة بخلاف الاحاديث فانها من باب الادب المشترك .

ثم ان الدارس لو تأمل هذه الصلة التي اشرنا اليها لرأى انها لا تنحصر بين المقامات والاحاديث الدريدية .

س ـ وماذا تعني بقولك هذا ؟

ج ـ اعني ان الميزات المشتركة بين الاحاديث والمقامات شائعة في كتب الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما . فالهمذاني بالتالي تأثر بجميع الادباء الذين تقدموه . وعندي ان التأثير الجذري الذي يتبينه الناظر في المقامات البديعية يعود الى الجاحظ لانه يمس موضوع المقامات بالذات .

س ـ وكيف ذلك ؟

ج ـ ان الجاحظ هو اول من تحدث في كتاب عن اهل الكدية فوضع كتابا في حيل اللصوص والمكدين . ثم انه في كتابه الشهير « البخلاء » عرض للكدية والمكدين في حديث « خالد بن يزيد » . وخالد بن يزيد هذا كما يقول الجاحظ « مولى المهالبة وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها احد » . وقد صوره الجاحظ واعظا ابنه عند موته وهو يحثه على الاقتصاد والتوفير ويوصيه بانتحال الكدية ويصف له مآتيه .

س ـ وما هي الرابطة بين هذا الحديث ومقامات الهمذاني ؟

ج ـ اذا استعدت الان في ذهنك اطرافا من المقامات الوصية والرصافية والسجستانية لفوجئت بالشبه الذي يربطها مع كثير من اخواتها بحديث خالد بن يزيد . فوصايا ابي الفتح الاسكندري لابنه في المقامة الوصية تشبه في

روحها واسلوبها واحيانا في تعابيرها وصايا خالد لابنه . ووصف الاسكندري لمغامراته في السجستانية قريب كل القرب من وصف خالد لمآتيه . وكذلك شأن طرق احتيال اللصوص والمكدين فانها في المقامة الرصافية امتداد لما رواه خالد بن يزيد الى غير ذلك من وجوه شبه واقتباس لا مجال لذكرها الان .

س – ان ما قلته يتجلى بوضوح لمن يقارن بين مضمون المقامات المذكورة وحديث خالد . زد على ذلك ان الهمذاني كان يسعى الى معارضة الجاحظ في بعض موضوعات نثره والى الغض من زعامته الادبية محاولا ان ينصب نفسه جاحظا لزمانه فانه صرح في مقامته الجاحظية بقوله « ولكل زمان جاحظ » . لكن الاديب الاديب وان اقتبس من غيره فانه لا يستوحي الواقع في آثاره . أيكون واقع المجتمع الذي عايشه الهمذاني هو الذي اوحى له بالتزام الكدية موضوعا لمقاماته واتخاذ بطله ابي الفتح الاسكندري من جماعة المكدين ؟

ج – ان معرفة الجاحظ بالكدية لم تأته عن طريق الجاحظ والكتب فقط وانما عن طريق المشاهدة والاختبار. فقبل الهمذاني بقرن تقريبا كانت جماعات من الشذوذ وقطاع الطرق قد تنظمت وعرفت بين طبقات المجتمع يومذاك باسم الفتيان والعيارين . ثم بمرور الزمن تفرع من هذه العصابة طائفة عرفت باهل الكدية كان افرادها يمتهنون التسول امتهانا ويرتضونه مذهبا في الحياة وعرف هؤلاء المكدون بالساسانيين او ببني ساسان .

س – وما علاقة هؤلاء بالادب والشعر ؟

ج – لقد خرج من هذه الطغمة شعراء مجيدون في بعض الاحيان وصفوا حياتهم وتجوالهم في الافاق فادخلوا في الشعر الفاظا عامية من مصطلحاتهم كما ذكروا فيه بذاءتهم ونوادرهم .

س – واين عرف بديع الزمان هذه الطغمة ؟

ج – كانوا في كل مكان الا ان الهمذاني عرف علما من اعلامهم هو ابو دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل عندما نزل بلاط الصاحب بن عباد في الري وكان لا يزال فتى يافعا .

س – ومن هو ابو دلف هذا ؟

ج – كان ابو دلف كما يقول الثعالبي في يتيمةالدهر شاعرا كثير الملح والظرف مشحوذ المدية في الكدية خنق التسعين في الاطراب والاغتراب وركوب الاسفار الصعاب

س – وما هو تأثيره على الهمذاني ؟

ج – اعجب الهمذاني بشخصية ابي دلف ومغامراته فاثارت خياله وهو الذي هبت عليه ريح الاغتراب باكرا وليس من المستبعد ابدا ان تكون فكرة انشاء المقامات قد استوحاها من الجو الذي خلقه ابو دلف وان يكون بطله ابو الفتح الاسكندري في كثير من سجاياه وسماته وتصرفاته صورة معدلة لابي دلف وبوجه عام للمكدين الاخرين .

س – ان الذي يطالع ما كتبه الثعالبي عن ابي دلف وما رواه من شعره الذي يصف به نفسه مكديا يميل الى تزكية ما تذهب اليه فهل لك بدليل اخر يقرب من الاذهان تأثر الهمذاني بابي دلف ؟

ج – يذكر الثعالبي ان الهمذاني كان يروي لابي دلف شعرا ففي كلامه على هذا الشاعر قال : وفي تدويخه البلاد يقول من ابيات انشدنيها ابو الفضل الهمذاني .

وقد صارت بلاد الله في ظعني وفي حلي
تغايرن بلبثي و تحاسدن على رحلي
فما انزلها الا على انس من الاهل

وهاك دليلا آخر أبين . يقول الثعالبي في مكان آخر من اليتيمة : وانشدني بديع الزمان لابي دلف ونسبه في بعض المقامات الى ابي الفتح الاسكندري :

ويحك ! هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
زوق ومخرق وكل واطبق واسرق وطلبق لمن يزور
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور !

والقاريء لمقامة الهمذاني القريضية يرى هذه الابيات مروية في اخرها على لسان ابي الفتح كأنها من الهمذاني.

س – وهل تأثر الهمذاني بغير ابي دلف من شعراء الكدية ؟

ج – نعم ثمة شاعرآخر تأثره البديع في هذا المضمار هو الاحنف العكبري ابو الحسن عقيل بن محمد . وهو على حد تعبير الثعالبي شاعر المكدين وظريفهم . والذي يقرأ شعره يرى فيه الكثير من سمات ابي الفتح . ومن ذا الذي يقرأ هذه الابيات الثلاثة له ولا يتذكر على الفور نقمة الاسكندري على الناس وانفاقه على حد تعبيره « بعد المال من كيس الاماني » وسخره من اهل الفرق ؟قال الاحنف :

عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر انذال
بالاماني اقول لا بالمعاني فغذائي حلاوة الامال
لي رجل تقول بالوقف في الـ ـرأي ورجل تقول بالاعتزال ! !

ولابن الحجاج هذا قصيدة يهجو فيها رجلا لم يذكر اسمه الثعالبي حين اثبتها في الصفحة الثلاثين من الجزء الثالث تكاد تكون المقامة الدينارية نثرا لها ليس في المعاني فحسب وانما في الالفاظ والتراكيب ايضا . .

س – حقا ان في هذه النصوص التي اوردتها والتي اشرت اليها لدليلا على ان تأثر البديع هو الى غير ابن دريد اقرب منه اليه بكثير . فهل تستطيع ان ترسم لنا اطارا عاما عن بناء المقامة وشكلها العام في صلتهما بادب العرب ؟

ج – يذهب بلاشير الى ان علاقة المقامات ب «الادب» في معناه الشامل كما يتجلى عند الجاحظ وابن قتيبة مثلا تلقي ضوءا موحيا على نشأة المقامات وعلاقتها بغيرها من فنون الادب . ويشير بالتفصيل الى ناحيتين يكثر استخدامهما في المقامات وفي الادب على حد سواء . اولاهما تقوم على الالتقاء ببدوي امي او راع او افاق ينطق

وجه بين النور والعتمة

أتيت اليك في تعبي
غريب الخطو والاصداء والوجه
وفي صحراء ايامي
تركت هناك راياتي ممزقة
وخيلي عبر بطن الواد منهكة من السفر
مشيت اليك في بوابة الليل
حزين الصمت والنظرات . فاجاني
على الطرقات صبار ، تركت عليه بعض دمي ،
وما روعت .. علمني
زمان الرعب ان الموت كالميلاد ،
والظلماء كالنور
وما نحياه من عمر
ضياء خافت الايماض ، يومض ثم ينطفيء

وجئت اليك في تعبي
غريب الخطو والاصداء والوجه
وفي تاريخي المسحوق دمع صار اكواما من الملح
وأشواق رمتها الريح صفراء الى النار
وجرح غائر ، ما زال يصبغ وجه ايامي
وكنت هناك بين النور والعتمه
رأيتك في مرايا الروح زنبقة من الاشواق والفرح
نماها الفجر في ركن من الجبل
وأعطاها شعاع الشمس ألوانه
وأودعها نسيم الليل أسراره
وكان العطر والانداء والظل
خبيئا في ثناياها !

وجئت اليك في تعبي
كعصفور رمته الريح والامطار
جاء اليك ملتجيا
وفي مرآة عينيك
رأيت الغيم منطلقا على الريح
يساقط فوق صحرائي
ثمار الخوخ والدراق والكرز !
رأيت البحر منفتحا
ضياء الشمس يغسله
وفي احضانه البيضاء زورقنا
مع النسمات ينتظر
يحملنا الى دنيا رسمناها من الصفر ..

وجئت اليك في شوق . وفي أملي
بانك أنت من أسطيع ان اهواه
وافرحه ، ويفرحني
وافرد فوقه جنحي
ويفرد جنحه فوقي
فلا تمضي
فلا تمضي
فلا تمضي

دمشق — صباح الدين كريدي

بكلام الملوك فتتوالى مقالاتهم موسيقية مسجعة يغشاها اللفظ الغريب والتعابير المصقولة . وقد انصرف ادباء القرن الرابع الهجري الى هذه الناحية فتجاذبوا اطرافها وصارت اخطبوطا قيد المعاني والافكار .

اما الناحية الثانية فتتجلى في موقف الفقير المعدم مقبلا على الغني وصاحب السلطان ينصحهما بالاقلاع عن ملذات الحياة لانها دار مجاز الى الاخرة . وقد روى الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه كثيرا من هذه المواقف التي سماها بعضهم مقامات .

س — ادركت الان ان ثمة عالما من البحث الرصين حول نشأة المقامات وابتكار البديع لها ينبو بالباحث عن الاشارة العابرة الى تقليد الهمذاني لابن دريد .

ج — ان البديع في مقاماته يمت بصلة الى الادب العربي جملة ولا يقتصر استيحاؤه على ابن دريد واحاديثه. فما هذه سوى جدول او سيل بين الجداول والسيول التي انتهت الى بحر المقامات . فالبحر بحر ولا يعيبه ان السيول انتهت اليه .

فيكتور الكك

من أعلام الفكر والادب في فلسطين

محمود العابدي - عبد الحميد الانشاصي

قسطنطين تيودوري

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - محمود العابدي

في يوم عيد ... حفلت مائدة الخليفة « المأمون » باكثر من ثلاثين لونا، فكان يصف ، وهو على المائدة ، منفعة كل لون ومضاره ، فقال يحيى بن أكثم :

« يا امير المؤمنين ! ان خضنا في الطب فانت « جالينوس » في معرفته ، او في النجوم فانت « هرمس » في صناعته ، او في الفقه فانت « علي بن ابي طالب » في علمه ، او في السخاء فانت « حاتم » في كرمه ، او في الحديث فانت « ابو ذر » في صدق لهجته ، او في الوفاء فانت « السموأل » في وفائه » .

فسر « المأمون » بكلامه وقال : « يا أبا محمد ! انما فضل الانسان على غيره بالعقل ! » .

في عام ١٩٠٧ ولد « العابدي » في قريـة عصيرة الشمالية بمحافظة نابلس وتخرج من دار المعلمين بالقدس عام ١٩٢٧ ونال الشهادة العليا لمعلمي المدارس الثانوية في فلسطين عام ١٩٣٤ والتحق بمعارف فلسطين في عهد الانتداب معلما فمديرا ، وتنقل في طائفة من المدارس الاميرية .

وبعد وقوع النكبة الفلسطينية الكبرى وتوحيد ضفتي الاردن انتسب « العابدي » لوزارة المعارف الاردنية وعمل في عدة مدارس اميرية معلما فمديرا فمفتشا . وتقديرا لاطلاعه الواسع في حقل التاريخ والمامه بعلم الاثار في مختلف العصور نقل مساعدا لمدير عام الاثـار .

وفي عام ١٩٦٠ اوفد في بعثة لدراسة الاثار في جامعة بيروجيا الايطالية كما درس الاثار الرومانية في معهد الاثار بكلية الاداب في جامعة روما ، ثم التحق بمعهد الاثار في جامعة لندن لدراسة الاثار الرومانية ثم زار اثينا وعكف على دراسة الاثار اليونانية .

وظل « العابدي » يعمل في مصلحة الاثار كمساعد للمدير العام حتى نقل عام ١٩٦٦ الى وزارة الاعلام الاردنية وعين مديرا لدائرة الثقافة والفنون .

و « العابدي » اليوم يعتبر ثقة من ثقات الاثار في العالم العربي ، وفي هذا المضمار هو علم من اعلام الاثار ورائد من رواد الاخبار .

من اثاره القلمية : وايمانا منه بان عليه واجبا قوميا لامته ، انتضى قلمه واهدى خزانة التاريخ العربي سلسلة من الكتب القيمة البعيدة عن (السلق) المتسمة بالعمق والدالة على خبرته بعلم الاثار والمامه بتاريخ الشعوب ومدنياتها .

ومن الكتب التي سخا بها قلم العابدي المؤرخ الكبير على خزانة التاريخ :

١ - مبادىء التاريخ القديم - طبع سنة (١٩٣٤) ٢ - تاريخ العرب (١٩٣٧) ٣ - تاريخ فلسطين القديم (١٩٤٢) ٤ - معلومات مدنية (١٩٢٨) ٥ - جغرافية العالم العربي (١٩٥٤) ٦ - التاريخ (كتاب مدرسي) (١٩٥٥) ٧ - من قصص العرب (١٩٥٤) ٨ - اثار البتراء (١٩٥٤) ٩ - اثار جرش (١٩٥٦) ١٠ - القصور الاموية في البادية (١٩٥٨) ١١ - ايران (١٩٥٩) ١٢ - المغرب (١٩٥٩) ١٣ - من تاريخنا (المجموعة الاولى) (١٩٦٠) ١٤ - الحفريات الاثرية في الاردن (١٩٦٠) ١٥ - من تاريخنا (المجموعة الثانية) (١٩٦٢) ١٦ - التاريخ بالقصص (١٩٦٤) ١٧ - مخطوطات البحر الميت (١٩٦٧) .

نموذج من نثره :

« اجتذبت فلسطين انظار الغربيين منذ فجر القرن التاسع عشر فزارها نفر من اهل الهمة والطموح غير مكترثين لما يلاقون من صعاب وما يتحملون من نفقات . ولقد اخذ بعضهم يهتم بمقدساتها وبعضهـم باثارها التي كانت مدفونة تحت اطلالها . ولقد اثارت مؤلفاتهم العزائم على تأليف الجمعيات التي هي اقدر على تجهيز الحملات العلمية مـن الافراد . ففي سنة ١٨٦٥ اجتمع في لندن عدد من العلماء اسسوا جمعية التنقيب الفلسطينية لدراسة بلاد فلسطين من جميع نواحيها ولا سيما اثارها . وقد شملتها الملكة فكتوريا بعنايتها وعطفها واسندت رئاستها الى ولي العهد امير ويلز .

وفي اول سنة ١٨٧٢ اعدت حملة برئاسة الضابط كوندر واسندت اليها مهمة اجراء مسح عام لفلسطين فمسح نحو ستة الاف ميل مربع من دان الى بيرالسبع ومن الاردن الى البحرالمتوسط . وقد وضعت هذا الوصف المطول في مجلدين ضخمين باسم (Tent Work In Palestine) وقدم لسمو ولي العهد سنة ١٨٧٧ . وكذلك رسمت اللجنة خريطـة مؤلفة من ٢٦ صفحة مستوفية كل ما في هذه البلاد من مواقع اثرية كانصاب الحجار الضخمة وكل ما يستحق الذكر .

وفي سنة ١٨٨١ ارسلت الجمعية بعثة اخـرى برئاسة الضابط المهندس كوندر ، لمسح القسم الشرقي من فلسطين . فهبط مع رجاله من القدس الى الغور وطلب من قبلان شيخ عشيرة العدوان ان يكون حاميه ودليله . وقد عبرت مخاضة الفوارنة (حيث اقيم جسر اللنبي او جسر الملك حسين) متوجهة الى الكفرين والرامة حيث اكتشفت هذه المجموعة من الانصاب (delmens) والدوائر الحجرية الضخمة ثـم اخترقت الوديان فاكتشفت العال وحسبان ومادبا ونبو وصياغة وماعين وحمامات زرقا ماعين . ثم استطاعت ان تجمع ٦٠٠ اسم قديم من اسماء التوراة واكتشفت اكثر من مئتي خربة ونسخت كثيرا مـن الكتابات والنقوش والرسوم . كما صورت اشياء كثيرة بالة التصوير الشمسي . وامضت اسبوعين في ربة عمون التي كان مهاجرو الشركس قـد وصلوا اليها قبل سنتين واخذوا يبنون اكواخهم على ضفتي السيل وبين خرائبها الرومانية . وقد اكتشفت على القلعة القصر الاموي الذي وجدت شبها بينه وبين بناء الصخرة وكذلك اكتشفت المحاجر التي قطعت منها حجارة ابنية عراق الامير الضخمة واستنتجت كيف كانت تنقل مـن مقالعها وكيف تبنى . وقد وضعت هذه الاوصاف الوافية فـي كتاب سمتـه « مساحة فلسطين الشرقية » .

وفي سنة ١٨٩٤ عقدت الجمعية اجتماعها السنوي برئاسة دوق يورك نجل ولي العهد فخطب في الاجتماع خطبة وجيزة قال فيها : «ان هذه الجمعية تالفت منذ ثلاثين سنة وعملت اعمالا نفيسة جدا ». واشار الى المثال الذي صنعته ليمثل بلاد فلسطين - سهولها ونجودها وجبالها وانهارها واوديتها وبحيراتها بحيث يمثل كل انش ميلا عـلى الارض فجاء من ابدع ما صنعه الصناع واصدق المثل الطبوغرافية . ثم قال : « ان هذه الجمعية قد نجحت نجاحا عظيما ونرجو ان يكون نجاحها في الماضي اساسا لنجاحها في اعمال اعظم للتنقيب في فلسطين ، كما نقب في بابل واشور ومصر وبلاد اليونان . » ولقـد اكتشفت اكتشافات خطيرة في لاخيش اي (خان الدوير بين الخليل وبير السبع) بمهارة

المستر بليس (Bliss) ومواظبته ، وهو دليل على تعاون الانكليز والاميركان في هذا العمل . ومما نذكره بالشكر ان السلطان الاعظم اظهر مسرته من هذه المكتشفات وتكرم بالفرمان اللازم بالتنقيب بالقدس الشريف حالا .

ثم خطب الميجر كوندر خطبة مسهبة اشار فيها الى ما يمكن وجوده من الآثار في ضواحي القدس الشريف والخليل وجبل لبنان وسهل حمص وقال ان اقدم مراكز العمران السوري كانت في جبل لبنان – لا في البلدان الجنوبية . وفيه الكثير من الاثار القديمة التي لم تنقب حتى الان . واشار الى ما ترك فيه ملوك آشور من اثارهم بقرب بيروت وغيرها من المدائن السورية .

ومن مجهودات هذه الجمعية انها كلفت الاستاذ مكلستر ان يقوم بأعمال الحفر والتنقيب في خرائب جازر في قضاء الرملة وهي التي اعطاها ملك مصر مهراً لابنته عندما تزوجها الملك سليمان في القرن العاشر . ولقد اكتشفوا فيها اثارها الكنعانية قبلان يحتلها الاسرائيليون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد فاظهروا المعبد الذي كان فوق اعلى قمة في المدينة وكانت فيه مزولة (ساعة شمسية) تستلفت الانظار وبقربه صهريج يسع نحو اربعة ملايين غالون من الماء كما اكتشف السور الذي كان يحيط بالمدينة . وقد استمر الحفر من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩٠٦ وقد جمعت المعلومات في كتاب اسمه « تاريخ الحضارة في فلسطين » وقد لخصه المكتشف المستر مكلستر في الاجتماع السنوي.

وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى ألفت الاكاديمية البريطانية – بناء على مشورة جمعية التنقيب الفلسطينية هذه لجنة للنظر في انشاء مدرسة للاثار في القدس تدرس فيها الاثار القديمة من كنعانية وعبرانية ويونانية ورومانية وبيزنطية وعربية مع اثار القرون الوسطى بعد ذلك . وقد اصدرت اللجنة المشار اليها نداء طلبت فيه ان تتبرع الجامعات والكليات وغيرها من المعاهد العلمية بنفقات الطلبة . وقدرت نفقة كل طالب بمئة جنيه في السنة . وطلبت من اهل الكرم ان يتبرعوا بما تجود به نفوسهم لاخراج هذا المشروع الى حيز العمل . فلبى نداءها اثنان من كرماء الانكليز وهما المستر ولتر موريسون والمستر روبرت موند فتبرع كل منهما بألف جنيه وقد وصلت التبرعات خلال مدة قصيرة الى عشرين الف جنيه .

ولا تزال المدرسة البريطانية لعلم الاثار في القدس تؤدي مهمتها على اكمل وجه لا سيما في عهد رئاسة المس كاثلين كينين التي حفرت ستة مواسم في اريحا القديمة واثبتت انها اقدم مدينة زراعية مسورة في العالم ، ظهرت فيها الزراعة حوالي سنة ٧٨٠٠ قبل الميلاد . ونشرت ذلك في مجلد ضخم اليه المنتهي في موضوعه . وقد نقلت نشاطها الى السفوح الممتدة من اسوار الحرم الشريف الى عين سلوان. وغايتها من ذلك تصحيح الاخطاء التي ارتكبها الحفارون القدماء عندما عينوا مواقع اسوار اورشليم اليبوسية والتي انشأ فيها سليمان هيكله. ولا تزال الدكتورة كينين توالي حفرياتها في مواقع مختلفة من مدينة القدس القديمة لكتابة تاريخها الصحيح المبني على النتائج الاثرية .

وهكذا اصبحت كتب هذه الجمعية من اهم المراجع عن بلاد فلسطين من حيث المعلومات الجغرافية والتاريخية والاثرية ولا سيما عن الفلاحين وقراهم مع ذكر مزارعهم واشجارهم وحيواناتهم وحياتهم الاجتماعية » .

٢ – عبد الحميد الانشاصي

كلما دار الحديث عن قضية فلسطين والظلامات التي حلت بها كان شعار « عبد الحميد » كلمة الكاتب السياسي المعروف ميشال ابو جوده :

« الحق كالايمان ... سيظل قادرا على نقل الجبال مهما تأخر احقاقه ، ومهما اعترضته الارادات والقوى الخارجية ! » .

في « الرملة » البيضاء ولد عبد الحميد عام ١٩١٠ وانهى دراسته الثانوية في مدرسة الفرندز برام الله والتحق بجامعة القاهرة طالبا مستمعا مدة سنة ودرس خلالها على عدد من اعلام الادب العربي امثال الدكتور طه حسين واحمد امين وعبد الحميد العبادي ، كما حضر دروسا ومحاضرات لبعض المستشرقين امثال نلينو وجويدي الايطاليين ، وعاد الى فلسطين ليعمل موظفا في الادارة مدة تزيد على خمس عشرة سنة ، وبعد حلول النكبة الاولى لجأ الى الاردن وعين موظفا في دائرة الجمارك .

جنح « عبد الحميد » منذ حداثة سنه الى كتابة القصة وقرض الشعر ، وافاد اطلاعه على الادب الاوروبي والاميركي وعلى الادب الياباني والصيني والهندي وعلى الشعر الفارسي .

من اثاره القلمية : نشر عبد الحميد عشرات من القصص والقصائد والمسرحيات ومن ابرز اثاره القلمية :

١ – القيود (رواية) ٢ – اليقظة (رواية) ٣ – اعترافات عاشق (رواية) ٤ – من اجل المال (رواية) ٥ – الوفاق الزوجي (رواية) ٦ – المنتصر (مسرحية) ٧ – حسان بن تبع (مسرحية) ٨ – الزباء (مسرحية) ٩ – نحو الهدف (مسرحية) ١٠ – في اوقات الوحدة (ديوان شعر) ١١ – عطف ام وقصص اخرى .

وفي اسلوبه الروائي تأثر بديستوفسكي ، كما تأثر بشكسبير في مسرحياته ، وبابي الطيب في قصائده ومروياته .

نموذج من شعره : واشجى الشاعر ان يولي الناس وجوههم شطر المال وجمعه وتكديسه فانشد متحسرا متفجعا :

كل وراء المال يكدح ناصبا   متسنما بين الرجال مناصبا
يقضي النهار مفكرا في جمعه   وكذاك يمضي الليل يحصي حاسبا
المال يكفي بعضه لمعيشته   ونرى الكثير على السعادة غالبا
بالمال يشرى ما يراد شراؤه   الا النبوغ فلا أراه مجاوبا
من كدس الاموال يبغي منصبا   في الناس كان لكل نقد جالبا
كم مجدوا الاهي خشية ماله   والعالم المسكين حيا خائبا
الشرق يداب في ادخار دراهم   والغرب يأتي من العلوم عجائبا

وجلس الشاعر ذات يوم على اطلال الجامع الابيض في « الرملة » البيضاء وانبرى يصف المسجد ومئذنته :

هي قلعة قد ادهشت بالطول   تاهت برأس في السماء جليل
نظرت تفتش عن عديل مثلها   هيهات قد اضحت بغير عديل
كم من رؤوس شاب منها شعرها   كم من حياة آذنت بأفول
والقلعة الشماء باق رأسها   في شكله لم ينتكب بفلول
تمضي السنون كأنها لا تنقضي   من عمرها اذ ثبتت بأصول
خلدت فخلد ذكرها اجدادنا   يمضي عليها الجيل بعد الجيل
في وجهها يبدو اصفرار رائع   من هيبة لا من ضنى وذبول
نسي الزمان وجودها ولعله   من عجزه يبدو بثوب خليل
او انه هاب الدنو لهدمها   اذ وجهها يبدو كوجه نبيل
يوما وقفت اجيل طرفي معجبا   بخلودها وبنائها والطول
فذكرت في ذهني الخصوم تساقطوا   ما بين مجروح يرى وقتيل
صورت في ذهني جنودا جاهدوا   خلف الثقوب بساعد مفتول
ويرد عنها السهم يندب حظه   ويطير منها السهم في تهليل
ويرى الغبار مشردا متطايرا   قد حل فوق الحصن كالاكليل
ويرى الخصوم بحيرة من امرهم   ضلوا فما انقادوا لكف دليل
كم من رجال اذنوا في رأسها   ودعوا بصوت مطرب وجميل
والناس من كل الجهات تجمعوا   في مسجد يزدان بالترتيل

نموذج من نثره : « سار في شارع ضيق ، بخطى مبعثرة ، كما يمشي المخمور ، وما به سكر ، انما الضعف والجوع نالا من جسمه فغدا أجوف هزيلا ، متشائما حاد المزاج ، سريع الغضب كمن اصابه مس من الجنون ، لا شيء يكسوه سوى قطع متماسكة من القماش قد تباينت الوانا واتفقت قدما ، وتدلت من بعضها خيوط تترنح في الهواء

كالديدان ... وفي يمينه عكاز تعلوه الاقذار ، وفي يسراه كشكول فارغ ، يتارجح ويحدث انينا محزنا . كان قميصه مفتوحا عن صدر يكسوه بساط من شعر غزير تتخلله قطرات من العرق ، وكانت لحيته متهدلة كسياج المزرعة ، وفي وجهه عينان تقدحان شررا ، وعلى رأسه عمامة ممزقة استحال بياضها الى خليط من الصفرة والسمرة !

مال الشحاذ الى اول باب طرقه فانبعث من داخل الدار صوت ناعم يسأل من الطارق ، فاجاب الشحاذ : « حسنة لله ! » فـرد الصوت الناعم : « الله يرزقك ! » وهنا تحول الشحاذ عن الباب في يأس وقال في نفسه : « كلكم يقول : « الله يرزقك ! » ان كان الله هو الذي يرزقني فلم جئتكم مستجديا ؟ »

وابتسم الشحاذ ابتسامة صفراء ... ثم يمم بابا ثانيا فلم يحظ بشيء ، وهنا انتقل الى شارع آخر ، وطرق باب دار فيها ميت عزيز على ذويه ، فتصدق القوم عليه ببعض الخبز العفن والطبيخ الفاسد ، فافرغ كل ذلك في كشكوله ومضى ، وفي طريقه عرج على باب مكتظ بعدد من الاولاد الصغار يلعبون ويلهون ، وسمع من داخل الدار دقات على طبل ، ونقرات على دف ، فادرك ان في الدار عرسا ، فاستبشر خيرا واستجدى طعاما لكن القوم استمهلوه الى الغد ، فرماهم الشحاذ بنظرة تنطوي على التهديد وتحمل معنى اخر هو : « قد يصيبكم في المستقبل ما اصابني من ذل وفاقة ، فهل تتحملون حينذاك ما اتحمله من قول ثقيل مؤذ ؟ » واستدار الشحاذ ببطء ، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى تقدم منه احد الاولاد وقال له : « اتحسن الرقص ايها الشيخ ؟ ان الرقص في الاعراس يدر عليك مالا موفورا ، فان كنت تحسنه انبات رب الدار بذلك ، ليرحب بك ويكرم وفادتك ! » فضحك الصغار وقال احدهم :

« انه اقتراح جميل يا شيخ ، والنقود خير من الخبز ! » ثم القى نظرة على كشكول الشحاذ وقال متقززا : « اوف .. كيف تأكل مثل هذا الطعام الفاسد ؟ هل وجدته على مزبلة القرية ؟ »

سمع الشحاذ هذا التحدي المؤلم ، فكظم غيظه ... لكن الصبي الوقح امعن في تحديه ... فهم المسكين بلكمه ولطمه ... غير انه امسك عن ذلك وصبر وكتم فورة دمه . وهنا صاح به صبي اخر وقال :

« ان كنت شيخا في مظهرك ، فانت في الحقيقة شاب قوي العضلات ، ولتكون رجلا محترما في المجتمع انفض عنك غبار الكسل ، وزاول حرفة شريفة غير الشحاذة والتسول ! » وما كاد الصبي يتم كلامه هذا حتى لطمه الشحاذ على وجهه لطمة كادت تفقده صوابه ، فبكى الصبي وانتحب وشتم الشحاذ بأعلى صوته ، وانفض الاولاد عنه خشية ان ينالهم من المتسول رشاش الاذى ... وسرعان ما ابتعد الصبي الملطوم وراح يجمع الحجارة من طريقه ويرجم بها الشحاذ بلا رحمة او هوادة ، الى ان وقف رجل بينهما وحمل الصبي على وقف القتال وقال للشحاذ : « اتنزل الى مستوى هؤلاء الصغار وتعاملهم هذه المعاملة القاسية ؟ » فرد الشحاذ بلهجة قاسية : « صغار ! صغار ! انهم كالرجال ، لهم عقول يفكرون بها وانا مثلهم : اعقل واشعر ، لست صخرة صماء ! انهم حينما اسمعوني قارص القول عبروا بذلك عما يجول بخلد الرجال امثالك ! كلكم تحتقرون الشحاذين وتؤلمونهم بنظراتكم الجارحة واقوالكم السليطة ... ان كثيرا من الناس ليسوا أهلا لان يرتدوا الثياب الفاخرة ويتناولوا الطعام الشهي ... وكثيرا من الشحاذين من هم خلفاء بان يرتفعوا الى منازل المترفين ، وينعموا بالحياة ، ويأخذوا نصيبهم من اطايبها ... ليس في دنياكم عدل ولا انصاف ... العالم كله ظلم وعدوان ! » .

فقال الرجل : « يخيل الي انك شيخ حسود ومتشائم ! »

ــ حسود ! انني مظلوم اطالب بحقي ... ولست حسودا كما تظن ! »

ــ وأي حق لك علينا ؟

ــ اطالب بنصيبي من نعيم الدنيا الذي استأثر بـه اغنياؤكم ، واحتفظوا به فضلة من فضلات ارزاقهم ، لقد جردتمونا مما يتمتع بـه الانسان من مأكل وملبس ... فغدونا كالبهائم لا نملك شيئا من حطام هذه الدنيا ... نجوع في صمت ... ونتألم في سكون ، وننام على الطوى ، ونعيش بلا أمل ... ولا نجد من يعطف علينا او يتخذ منا صديقا له ! » .

فرق الرجل لحاله ، وجعل يسرح بصره في وجهه وثيابه ، فكاد المسكين يذوب غما وخجلا ، وهم بالانصراف فمد الرجل يده الى جيبه وتناول نصف غرش وقال له : « خذ هذا يا شيخ ... انني اعذرك ! » لكن الشيخ لم يلق نظره على قطعة النقد ، ومضى في سبيله قائلا : « اشكرك ! لقد عودتمونا القناعة ... في كشكولي من الخبز اليابس ما يكفيني ! » فلحق به الرجل وقال له :

« احسن اليك وترفس عطائي! الحق انك اهل للفقر والعوز ! »

فاجابه الشحاذ : « ان كان جودك صادرا عن طيبة قلب فانني اهل لما تقول ، انني موقن انالناس جميعا لا يأبهون الا لشؤونهم الخاصة ، اما ان يساعد بعضهم بعضا عن طيبة خاطر فذلك ما لا أؤمن به ! » .

اجابه الرجل باشمئزاز وانفعال :

« اغرب عني ايها النحس ... لا عشت ولا عاش امثالك ، ان وجودك بيننا ينغص عيشنا ، ويعكر صفونا ! » .

فالتفت الشحاذ وقال بصوت مرتفع : « كما نغصتم علي عيشتي باحتقاركم وازدرائكم وشحكم نغص الله عليكم هناءتكم وحياتكم ! » .

استأنف الشحاذ مسيره ، وفي طريقه مر برجل القى عليه نظرة ازدراء ومر في سبيله ، فقال الشحاذ في نفسه : « حتى السلام لم يطرحه علي ... حقا لقد صدق قولي اننا معاشر الشحاذين كالبهائم ! »

وفي طريقه لقي سيدة دنا منها شاب وسيم الطلعة انيق الثياب فاخذ يغازلها فتضحك وتبتسم ، لكنها نفرت عندما قرب الشحاذ منها فاغتاظ المسكين وقال في نفسه : « حتى النساء لا يطقن رؤيتي وينفرن من وجهي ... وذلك الشاب الوسيم تبسم له اما انا فتلقاني بعبوس ونفرة ... ما ذنبي ؟ لو وهبني الله وفرة في الرزق لكان مني انسان جذاب الوجه ، فاخر الثياب ! » .

وظل المسكين يمشي في طريقه حتى انتهى الى مزرعة ، فاقترب من سياجها ليجلس في مكان ظليل ، فهب كلب ضخم عليه وقابله بنباح خشن متواصل لفت نظر الحارس ، فانتصب هذا في وسط المزرعة ثم صاح بالشحاذ :

ــ ماذا تصنع هنا أيها الشحاذ ؟

ــ لا شيء ... لا شيء ... اريد الجلوس هنا .

ــ لا اخالك الا لصا جئت تسرق ثمارنا ، فارحل حالا !

فهز الشحاذ رأسه هزة سخط والم وقال في نفسه : « حتى المكان الذي لا زرع فيه لا يسمح لي بالجلوس ! »

وهب من موضعه وسلك طريقا اخرى والكلب وراءه ينبح ويثور ، فتضايق الشحاذ منه والقى اليه بكسرة من الخبز الجاف ، فالتهمها بنهم ، ودنا من الشحاذ متحببا ، فانس اليه ونفحه كسرة اخرى . واخيرا انتهى الشيخ الى شجرة كبيرة من الصفصاف والكلب على مقربة منه فابتسم وقال في نفسه : « لقد انقلب صديقا بعد ان كان عدوا !» ثم ربت على ظهره وقاله : « اهلا بك يا صديقي ! لئنحرمت صداقة الناس فلي من صداقتك أكبر عزاء !» قال هذا ونفحه قطعة من الخبز ، ثم نثر ما في الكشكول من خبز يابس ، وطبيخ فاسد ، فانبرى الكلب الى التهام الطعام وقال الشحاذ في نفسه : « كثيرون من الناس يغدقون على الدجاج بفتات موائدهم ، ويبخلون بها على الجياع ، ومنهم من يتركها في زاوية مطبخه للعفونة والتفسخ ، فاذا جاءه شحاذ كان جوابه ان الخبز ما زال في الفرن !».

واجال بصره في ثيابه البالية الممزقة ثم قال في نفسه : « وما

أكثر الثياب التي يصففونها في خزائنهم ويتركونها طعمة للارضة والفئران، والشحاذ المسكين محروم هذه النعمة والخيرات !»

ولما فرغ من تناول كسرة خبز جافة بيده ، لصق به الكلب وراح يتحكك بصدره اعرابا عن شكره ، واسند الشحاذ ظهره الى جذع شجرة ، وأقعى الكلب بجانبه ، وما هي الا لحظات حتى هوم الشيخ في نوم عميق ، ونسي هموم الحياة ومتاعبها ، وظل الكلب الامين مفتوح العينين يحرس صديقه الفقير !

٣ ــ قسطنطين تيودوري

في بيت المقدس ، مدينة الطهر والحق ولد « قسطنطين » عام ١٩١٢ وأنهى دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة المطران بالقدس ، وتلقى العربية على المرحوم خليل بيدس ، وأول مقال نشره عام ١٩٢٠ في جريدة « لسان العرب » المقدسية لصاحبها ابراهيم النجار كان بعنوان « اللغة العربية » ، وبعد تخرجه عين استاذا في « الجمناز الارثوذكسية » بالقدس ثم في كلية شميت الالمانية ، وبعد فترة عمل استاذا في المدرسة الاميرية برام الله وفي المدرسة الاميرية ببيت جالا .

وقبل حلول المأساة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) عين استاذا في «مركز الشرق الاوسط للدراسات العربية» في القدس وبانتقال هذا المركز الى مدينة الزرقاء بالاردن اولا والى شملان بلبنان ثانيا انتقل الاستاذ تيودوري مع زملائه المعلمين العرب ، وعين خلال وجوده في لبنان، استاذا للغة الانكليزية في « الكلية الداودية » في بلدة « عبيه » وفي «الجامعة الوطنية » في عاليه » وفي « المدرسة الثانوية » في برج البراجنة .

في سن مبكرة زاول الاستاذ تيودوري الكتابة في الشؤون الادبية، ونشر مقالات في مجلة « المقتطف » عام ١٩٢٧ بعنوان « ضعف القوى الثلاث : الحس والفهم والارادة » كما نشر مقالات أدبية في مجلة « النعمة » و «السياسة الاسبوعية » و «الراعي الصالح» وفي جرائد «الف باب» و «فلسطين» و «بيت المقدس » وحرر مجلة «الحكمة » للسريان الارثوذكس بالقدس وجريدة «مرآة الشرق » المقدسية لصاحبها المرحوم بولس شحادة .

من آثاره القلمية : نشر الاستاذ تيودوري القليل مما كتب وصنف، ولولا المأساة الفلسطينية المروعة لكانت اثاره القلمية أوفر مما أخرجته المطبعة العربية بقلمه ، ودونك اسماء آثاره المطبوعة :

(١) الزهور (٢) بين مصر وفلسطين طبع عام (١٩٢٨) (٣) بين الاسر والحرية (١٩٢٩) (٤) The New Palestine (١٩٣٦) (٥) فلسطين ومستقبلها (١٩٣٨) (٦) الفريد في المصطلحات الحديثة (معجم عربي ـ انكليزي) (١٩٦٠) (٧) المعجم التجاري الاقتصادي (١٩٦٦) (٨) المصطلحات الدبلوماسية والصحفية (معجم انكليزي ـ عربي) (١٩٦٧) .

نموذج من شعره : بعد ان تولى الاستاذ شارل حلو رئاسة الجمهورية اللبنانية في ٢١ ايلول ١٩٦٤ نظم الاستاذ تيودوري الابيات الرقيقة التالية وقد بعث بها الى فخامته :

ركنان : لبنان المخلد مجده ... و « الحلو » كنز للبلاد نفيس
كل يجود بما لديه من اللهى ... للشعب حتى تستقر نفوس
سامي النهى شع التقى من روحه ... بالحق يقضي دائما ويقيس
عذب الحديث رئيسنا وكلامه ... نور وفيه حكمة ودروس
فيه جلاء للامور اذا دجت ... او لاح في افق الحياة عبوس
يتعهد الشعب النبيل بهمة ... قعساء وهو مع الجميع انيس
مهما تباينت العقائد بينهم ... فبعدل حكم للجميع يسوس
يا سيدا ملء الجوانح حبه ... برعاية الباري أب محروس
دم للبلاد فانت يا « حلو» النهى ... قبل الرئاسة للقلوب (رئيس) !

نموذج من نثره : « الحرية حق من حقوق كل انسان ، والعبودية مخالفة للطبيعة البشرية ، ولا يخفى ان الميل الى الحرية غريزي في الانسان ، لذلك كان طبيعيا ان ينشد الناس الحرية في كل مكان ويسعوا وراءها بكل ما أوتوا من عزيمة وقوة . وقد عرف بعضهم الحرية بانها الاستقلال المطلق والاكتفاء الذاتي ، الا ان هذا التعريف مغلوط ، اذ ليس في مقدور احد أن يستقل استقلالا تاما عن غيره ، ويكتفي بذاته دون ان يعتمد على مساعدة الاخرين له ، فنحن مقيدون في بيئاتنا ومحدودون في مقدرتنا الذاتية ، فلا يستطيع كل واحد منا ان يكون موسيقيا عظيما او عبقريا من العباقرة ، فلسنا اذا أحرارا لنكون ما نريد ، لان طبائعنا البشرية تعيدنا وظروفنا الخاصة وعوامل وراثتنا تتحكم فينا ، ثم ان الواحد منا لا يرغب في حياة العزلة والانفراد ، لان الانسان كائن اجتماعي او جزء من المجتمع الانساني ، فلا مفر له من العيش ضمن اطار المجتمع ، مكونا علاقات اجتماعية مع غيره ،ومعتمدا على من حوله من اجل نموه وسعادته .

لقد وصف الفيلسوف الانكليزي جون لوك ، في اواسط القرن السابع عشر ، الحرية بقوله : « ولد افراد المجتمع احرارا بحكم الطبيعة ، ولهم حقوق طبيعية في حياتهم وحريتهم وأبدانهم وأموالهم، فالله تعالى وهبهم هذه الحقوق لانهم خدامه وخلائقه » . وقال الكاتب الانكليزي توماس باين ، في القرن الثامن عشر ، « يولد الناس متساوين احرارا ، وهدف المجتمعات السياسية صيانة حقوق الانسان الطبيعية!»

بناء على ما تقدم تحقق الحرية للمرء حقوقه الطبيعية وتتيح له أن يكمل نفسه ، ويظفر بشخصية موفورة الكرامة ، كما ان المساواة تسير جنبا الى جنب مع الحرية ، فهي التي تكسب الانسان حظا من الانصاف يعصم القوي من الاستعلاء على الضعيف والغني من التحكم بالفقير ، والقادر من التفوق على العاجز ، فالحرية والمساواة والحالة هذه توأمان لا غنى للواحد عن الاخر .

ان طبيعة النفس متصفة بالروحانية والتعالي على المادة ، فخواص المادة ليست بخواص الروح ، وبما ان النفس غير منحصرة في دائرة المادة ، فهي ممتدة القوى ، متجهة نحو الاشياء غير المحدودة ، لذلك اتسعت سلطتها على الكائنات ، وهذا الاتساع مصدر حريتها ، لان النفس تشرك العقل في غزارة حياتها اشراكا يمنحه القدرة على معرفة الاشياء المختلفة منزهة عن المادة ، وقوة الارادة تابعة لقوة العقل ،وبذلك تتصف بالميل الى الموجودات المطلقة ميلا تنجم عنه حريتها .

وفي طيات الحرية تبرز المسؤولية الادبية ، فالانسان يستطيع ان يفعل ما يحب ويشتهي ، ولكن لا ندحة له عن ان يستشعر في نفسه بالراحة والطمأنينة اثر فعله الخير ، وبالاسف والندامة بعد اقترافه الشر ، ومعنى هذا ان المرء يحب الا يفعل كلما تصبو اليه نفسه، بل ما يجب عليه عمله كل ما هو حق وصواب ، وهذا أمر يفرض المسؤولية الادبية علينا ، وهذه المسؤولية تفرض الحرية ، اذ من المعلوم انه حيث لا حرية فلا مسؤولية ، ولولا الحرية لاضحت حياة الانسان دون معنى ولا غاية .

وكلما اقترب الانسان من المثل العليا ، اقترب من الحرية التامة، ومتى وجدنا رجلا يميل الى الخير وينفر من مجرد تصور الشر ، ثم ينعطف الى الحق والمحبة لا يرضى بهما بديلا ، حكمنا انه قد حقق في نفسه الحرية الكاملة ، بينما اذا رأينا رجلا يؤثر النفاق والظلم والفجور ، حكمنا انه قد ابتعد عن الحرية بل أضحى مناوئا لها . فالقابلية لاختيار الشر ، بناء على هذه القاعدة السليمة ، ليست من كمال الحرية ، بل من دلائل ضعفها وانحطاطها ، بل من آفاتها ومثالبها. ان صانع الشر من تلقاء نفسه ينقص حريته بدلا من ان يزيدها ،وكلما تمادى المرء في ارتكاب المساوىء ، وامعن في اقتراف الرذائل ، قعدت به حريته عن اظهار شخصيته على حقيقتها ، فيصبح في مظهره وتصرفاته كالذليل المستعبد .

والحرية نوعان : الحرية الفردية والحرية الاجتماعية ، فالحرية الفردية هي سير ارادة واحدة في سبيل الخير ، وكلما تكاملت حرية

قراءات الماء

كلما ركضنا في الطرقات سقطنا فـي البحر

تكبر في الغرفة نقطة الظلام
حديقة زنجية
تعرق في اغصانها ، لهفتنا الصيفية
ووجهنا البعيد .
وفي الفراش يلبد الصقيع
لا قمر الحنين اعطى قلبه ــ لصوتنا
ولا تغطي حسنا
مقالع الجليـد .
الصيف لا الشتاء في عروقنا
ودائما في وجهنا الربيع .
ورقدت ذاكرة الغربة في الفراش
مغارة قد حفرت سردابها رياحنا ،
وعنكبت بسرها الحياه .
الصمت حافي القدم
تناى بـه غربتنا
وتحت حائط المساء
تخلخلت طبيعة السرور
وحرقت غرفتنا الباهتة الصماء احزاننا ..
اتسعت حقيقة الظلام
عيوننا تهتك حرمة القرار
متاعنا حديقة الليل وما ينضجه التعذيب
في قلوبنا من الثمر .
اختلطت قافلة الصور ببعضها
وشكلت بحيرة القلق
تغرق فيها النفس والمكان عائم
تنفيه عزلة القدر .
حقيقة تجتاز ذاتها
تعيد صوتها المياه
تفسر الوصول
كأن غربة البعاد تنزف الدماء في عظامها
تثقب جدران الابد
وتولد الفصول

حلب — لؤي فؤاد الاسعد

الفرد ازداد حبه للخير والصلاح والعدل وسائر الصفات التي تكـون دعامة المدنية الحقة . أما الحرية الاجتماعية فهي سير مجموع مـــن الارادات في طريق واحد تدفعها اهداف انسانية واحدة وغايات نبيلة مشتركة . ويلاحظ ان المجتمعات التي تتوفر فيها الحرية الاجتماعيـة تكون اسبق من غيرها الى اجتراح الخير والاحسان ، فهي ابدا دائبة على تنفيذ مبادئها الانسانية ومحاربة جيوش الجهل والرذيلة .

أما الحرية المزيفة الكاذبة التي يفهم منها اربابها التفاضي عن المبادىء الادبية والقيم الروحية والنظم الاجتماعية ، فيهدف ناشرو لوائها ، سواء أكانوا افرادا ام جماعات ، الى تضليل العقول وافساد النفوس ، ومساواة الحق بالباطل ، والرذيلة بالفضيلة ، وايهام الناس بانهم على حق وصواب . فهؤلاء يبذلون قصارى جهدهم لاعلان هـذه المبادىء الهدامة ونشرها بين الورى باسم الحرية ، الا انهم سرعان ما يكشف امرهم وتعلن طويتهم ، فينفر منهم كل ذي عقل سليم ، ويعرض عنهم كل من فيه بقية من مبدأ او ضمير ، ذلك لان الشر مهما طغى وتفاقم ، فلا بد ان يتلاشى في نهاية المطاف . ان الحرية هي في منزلة السائل الحيوي المندفع في العروق ، ولكن اذا اسيء استعمالها كانت شرا ونقمة ، فاذا ما أطلقت من عقالها وتجاوزت حدودها ، ولم يحطها رادع من عرف او تقليد ، كانت الفوضى بعينها تسمح القوي باستباحة حق الضعيف ، وللخبيث بالتلاعب بالنزيه ، وللجشع بالاستئثار بجهود العامل واتعابه ، وبعبارة اخرى تضحي عدوانا على حريات الاخريـن وامتهانا لكرامة المجتمع وحقوقه .

ومن جهة اخرى اذا سعى الرأي العام في قطر من الاقطار لطمس حرية الفكر والقول ، فمعنى ذلك انه تعمد طمس صوته القوي ، لان الرأي العام انما ينشأ ويتكون من حرية التعبير عن فكره ومشاعره، وفي الوقت نفسه اذا حاولت حكومة ما اخماد حرية الفكر واسكات صوت الحق ، أثارت ضدها سخط الشعب وعرضت نفسها للسقوط، وفي اعتقادي انه ما من ملك او رئيس حكومة او امير او زعيم تمادى في أعمال الظلم والاستبداد ، الا لانه ادعى الحرية ادعاء وتمسك بهـا سطحيا ، فلم يشرب قلبه معرفتها وحبها ، وبعبارة اخرى لم تنبـع هذه الحرية من داخله . ان حرية الفكر وحرية البحث والمناقشة وحرية النقد وحرية النشر وحرية العبادة وحرية تبادل الابحاث العلمية والنتائج التي تسفر عنها مع طوائف العلماء في كل مكان ، كل ذلك انما هـو من صور النشاط الفكري والادبي والروحي الذي لا بد منه للانســان الذي يحمل في نفسه مبدأ التطور والنمو والسمو بالنوع كما برهن لنا على ذلك لامارك وهيجل وداروين وغيرهم من العلماء ، وكل تقييد للحرية في غير حدود المعقول يعرقل هذا النمو ويصد ذلك التطـــور، وعلى أساس هذا المبدأ انشئت نظريات التربية الحديثة ، ومن اغراضه نمو الفرد وتطوره !»

عمان ــ الاردن — البدوي الملثم

سميراميس بين الاسطورة والتاريخ

بقلم الدكتور سامي سعيد الاحمد

استاذ الدراسات الشرقية في جامعة دنفر بامريكا

* * *

من الاساطير المسحرة التي ولع بها الكتاب اليونانيون والرومان والارمن وتفننوا في نسج تفاصيلها هي قصة الملكة سميراميس ملكة اشور التي خلدت ذكرها على حد زعمهم بولادتها الغريبة ، وحياتها المملوءة بالمخاطرات وفتوحاتها المشهورة . فديودوروس الصقلي يخبرنا معتمدا على ما كتبه الطبيب كتيسياس بان الملك ناينوس ملك اشور غزا بلاد بابل وارمينيا والميديين وفلسطين وسورية وآسياالصغرى وبنى مدينة نينوى (التي يضعها ديودوروس خطأ على الفرات) وسماها باسمه . وبعدها ضاقت به الدنيا ذرعا فغزا باكتريا (بلاد افغانستان الحالية) وهناك كما تروي القصة راى سميراميس عندما التحقت بزوجها وتزوجها . وحياة هذه الملكة كما يرويها المؤرخ اليوناني هذا وغيره عجيبة حقا فقد نتجت عن اتصال الالهة دركيتو ، الآلهة السمكة لمدينة عسقلان ، باحد عباد الآلهة افروديت . فخجلت دركيتو من نفسها لهذا العمل الشنيع وندمت لفعلتها فتركت الرضيع بعد الولادة والقت به عند بحيرة قريبة . فأتت طيور الحمام واعتنت بالمولودة الى ان عثر عليها راعي غنم بالمنطقة فاخذها ورباها ومن ثم قدمها الى الملك العقيم سحماس الذي رباها وزوجها عندما بلغت سن الرشد من الضابط الاشوري أونس الذي وقع في حبها .

ومرة كان اونس هذا مع ملكه نابنوس في حملته ضد باكتريا وعندما طال امد حصار باكتريا ارسل أونس الى نينوى من يجلب زوجته سميراميس له . وحالما وصلت سميراميس الى موقع المعركة وشهدت حالة اليأس التي تعتري المقاتلين ، آنذاك طلبت ان تمنح عددا من الجنود وعندما تسلمتهم هجمت على القلعة وفتحتها . ولما راى نينوس عظم عملها وشجاعتها اكبرها واخذها من ضابطه وتزوجها نفسه . وقد خلفت من الملك نينوس ولدا سموه نينياس . ويخبرنا المؤرخون اليونان بان هناك ثلاثين جيلا من الزمن بين نينياس هذا والملك ساردانابولوس آخر ملوك اشور الاقوياء على حد زعمهم . وان خليفة نينياس العشرين اسمه تيوتاموس الذي عين محنون لقيادة الحملة التي عهد اليها غزو طروادة . ولما كنا نعرف على وجه التقريب زمن غزو طروادة (حوالي ١٢٠٠ ق.م) واذا افترضنا ان مدة الجيل الواحد ٢٥ سنة فيكون اواسط القرن الثامن عشر ق.م هو زمن حكم الملكة سميراميس بحسابهم .

وبعد وفاة نينوس دفنته زوجته سميراميس في قبر عظيم وبنت مدينة بابل واحيت او استجدت الكثير من مشاريع الري هناك . ويذهب ديودوروس مفصلا رحلاتها في جنوب غرب اسيا وبنائها للكثير من المباني الشاهقة والطرقات والقنوات وخزانات المياه . وزارت في ليبيا معبد وحي الآله آمون الذي تنبأ لها بالمستقبل واخبرها بنية ولدها في التآمر على حياتها . وبعدها حاولت غزو الهند بجيش قدره ثلاثة ملايين جندي والبست بعض رجالها جلود ثيران سود محاولة ايهام المعسكر الهندي بان لديها الكثير من الفيلة ولكن سرعان ما عرفت حيلتها وانكشفت الى العدو وهكذا باءت حملتها بالفشل . وما ان سمع ابنها بالهزيمة هذه حتى قام بثورة آلمت امه التي تحولت الى حمامة وطارت في الفضاء (١) .

ولا نريد ان نناقش هذا العنصر الاسطوري في القصة او المبالغات ولكننا عند فحص محتويات الرواية نرى بأن هناك الى جانب اسم الملكة نقطتين لهما ما يشابههما في المصادر الاشورية . فالحمامة كانت الطير المفضل عند الاشوريين وكذلك الاقوام السامية كافة (٢) . واسم زوج سميراميس أونس مطابقا الى اسم أوئنس الاله الكلداني الذي ربما يكون نفسه الاله تابو الذي يذكره لنا بروسوس المؤرخ البابلي المشهور من القرن الثالث ق.م بانه اتى من البحر وعلم اهل بابل الكتابة والفنون . والنقطة الثانية بان ما نسبه ديودوروس الصقلي الى سميراميس من استخدامها مليوني رجل في بناء وتعمير مدينة بابل وبنائها قصرين فخمين متصلين بخندق حفرته تحت الماء وسؤالها ملك فارس ان يرسل من يبني لها حدائق معلقة هو في الواقع ما عملاه نيو بلاصر وولده نبوخذنصر من اواخر القرن السابع ق.م من الاصلاحات العمرانية في بابل . وما ذكره لوشيان المؤرخ السوري يطابق الى حد كبير ما سطره لنا ديودوروس مما يدل على مدى الاهمية التي علقها المؤرخون القدماء على ما كتبه ديودوروس (٣) .

اما هيردوتس فقد تعرض الى قصة سميراميس وذكر بناءها لسدود كثيرة في بابل لحماية البلدة من خطر الفيضان . ومن ثم ذكر لنا ملكة اشورية ثانية سماها نيتوكريس اكثر حكمة وروية على حد قوله من سميراميس وجاءت بعدها بخمسة اجيال وخلدت ذكرها بكثير من العمارات التي شيدتها في بابل وبالسدود التي انشأتها والجسر المشهور . ومن ثم بنت لها قبرا ضخما في القسم الشمالي من المدينة وأوصت ان يكتب عليه « ليدخل هنا من يحتاج الى المال من الملوك » وفعلا كسر الباب ودخله داريوس الملك الفارسي ولكنه وجد عوضا عن المال ما

نصه في كتابة منقوشة « لو لم تكن شريرا وطامعا في المال لما دخلت قبر الميت وازعجته » (٤) . وما أورده هيردوتس يحتاج الى امعان اكثر فقد ذكر لنا المؤرخ الروماني بلوتارخ الذي عاش اكثر من أربعمائة وخمسين سنة بعد هيردوتس نفس قصة القبر التي سردها هيردوتس ولكنه ينسبها الى سميراميس . وعلى حد قول بلوتارخ ان سمير اميس بنت لها في حياتها قبرا وكتبت عليه ما يلي (أي ملك يجد نفسه في حاجة الى المال فله ان يكسر هذه البناية ويأخذ منه ما يشاء) . وفعلا كسر باب القبر هذا الملك داريوس ودخله ولكنه لم يجد شيئا سوى نقش كتب فيه (لو لم تكن رجلا طامعا في المال وشريرا لما كنت ازعجت محلات سكن وراحة الاموات) (٥) . اما ذكر هيردوتس لنيتوكريس فلقدكتبته السيدة هيلد كرد ليفي في مقالة طريفة لها وقالت انها لا بد وان تكون الملكة نقية (زاقوتي) زوجة سنحاريب الثانية المفضلة وأم الملك أسرحدون والتي لعبت دورا خطيرا في حياة زوجها وسيرت سياسة الامبراطورية الاشورية طوال المدة التي بقيتها مع سنحاريب وطول مدة حكم ابنها ، وربما حكمت بابل عندما كان ابنها حاكما هناك في عهد ابيه . ونقية هذه هي التي اقنعت سنحاريب باسناد ولاية العهد الى ابنها وحرمان أولاد زوجها من زوجته الاولى تاشميتوم ـ شرات مما ادى الى غضبهم وقتلهم والدهم (٦) . وهناك من يذكر عن سوء خلقها فدايو كريسوستوم يقول (أنا أعرف عن امراة طاغية اسمها سميراميس طفت عليها الشهوة حتى عند كبرها وكانت تجبر الرجال على الاختلاء معها) . (٧) والمؤرخ الروماني بليني الكبير يفصل خبر حرقها لنفسها في بابل عند سماعها بمقتل حصانها المفضل (٨) .

وفي كتابات بارثينيوس نجد كلا من الشخصيتين دافني وجالو يذكران قصة حب وزواج شبيهة كل الشبه بغرام لنينوس وزواجه من سميراميس (٩) .

وتفصل لنا القصة الارمنية كيف ان الملك ارا حكم بلاد ارمينيا نيابة عن نينوس . ولكن الملكة الشريرة سميراميس كانت قد سمعت عن جمال ارا وحسنه فما ان مات زوجها او هرب الى كريت حتى ارسلت الى ارمينيا رسلا مع هدايا عارضة على أرا الزواج منها والحكم على البلاد الاشورية جمعاء او اطاعتها في ارضاء رغباتها الشهوانية ومن ثم الرجوع الى ارمينيا بسلام واجلال مع الكثير من الهدايا والاموال . ولكن ارا رفض ذلك مما اغضب سميراميس وحملها على تجريد حملة كبيرة لغزو أرا في عقر داره . وقبل الهجوم اخبرت القادة انها لا تريد الا امساك ارا ولكن أرا هذا مات في اول معركة من القتال . وما ان سمعت سميراميس حتى خرجت تولول مفتشة بين جثث القتلى ، وفعلا وجدته صريعا فأمرت بوضعه في غرفة بقلعتها . وعندما ثارت أرمينيا للانتقام لملكهم أخبرتهم بأنها قد توسلت لدى الالهة ان يلطعوا جروح أرا ويرجعوه ثانية الى الحياة . واستخدمت سميراميس كل فنون السحر المعروفة آنذاك ولكن هيهات فلا رجعة لأرا الذي بدأ جسمه بالتفسخ والتعفن حتى أمرت الملكة بدفنه . وبعدها امرت سميراميس أحد رجالها ان يدعي بأن أرا أحيته الآلهة وأقامت سميراميس الاعياد لذلك شاكرة الآلهة على جميلهم وحسن صنيعهم وأصدرت ارادتها الملكية بتعيين نوثرات نجل أرا ملكا على بلاد ارمينية . (١٠)

وهنا نجد التشابه الكبير بين ما يرويه دايو كريسوستوم وتسرده الرواية الارمنية عن سوء خلقها

---

(1) C. H. Oldfather, Diodorus Siculus' (London 1933) Vol. 1, VIII
(2) R. Smith, The Religion of the Semites, (New York, 1959), P. 99
(3) A. M. Harmon, Lucian, Loeb Library, (London, 1925), Vol. IV, pp. 354
(4) Herodotus, 1 : 184 - 187
(5) Babbit F.Cole, Plutarch, Moralia, (London, 1931) vol. 111, p. 15
(6) Hildegard Levy, Nitokris-Naqia, JNES, X, (1952) pp. 264 ff.
(7) Crosby H. Lamar, Dio Chrisostom, Loeb Library, (London, 1946) vol. 4, pp. 269 ff.
(8) Pliny's Natural History, 1, VIII
(9) Thornley G., Partheneus, Loeb Library, (London, 1935) p. 233.
(10) Boyajian Zabelle, Armenian Legends and Poems, (New York, 1958) p. 23 ff.
(11) The Mahbharata, Adi Parva, section, LXXi, Lxxxii, Roy's translation pp. 213-16.
(12) G. Ayscough, Semiramis, (London, 1776)
(13) W. J. Craig, Ed. The Complete Works of William Shakespeare, Titus Andronicus, (London, 1923) pp. 858-61.
(14) Taming of the Shrew p. 281
(15) G. Byron, The Poetical Works of Lord Byron, (Boston, 1871), vol. VII, pp. 16-24; Osgood, Ch., Concordance to the poems of Edmund Spencer, (Philadelphia, 1915) pp. 503, 563; F. A. Patterson, The Works of Milton, (New York, 1923) vol. VII, pp. 821 - 24.
(16) J. B. Bury, S. A. Cook, F.F. Adcock, ed, The Cambridge Ancient History, (New York, 1925) Vol. 111, p. 27 ff.
(17) A. T. Olmstead, History of Assyria, (Chicago, 1923) p. 158.
(18) Hugo Winckler, The History of Babylonia and Assyria, (New York, 1909) p. 231.
(19) D. A. Mackenzie, Myths of Babylonia and Assyria, pp. 272 ff. ; C. F. Lehmann-Haupt, Die Historische Semiramis und ihre Zeit, (Tübingen, 1910)
(20) G. Goossens' La reine Semiramis de l'histoire à la legende (Leiden, 1957)

وشهوتها ، وربما يدل علــى ان مصدر معرفة دايـو لسميراميس كان عن طريق الادب الارمني .

ولقصة سميراميس ما يشابهها في الادب الهندي القديم في اسطورة شاكونتالا التي كانت ابنة الحكيــم قسوام اترا ومناكا الحورية السماوية وقد وضعتها لهـا على ضفاف نهر ماليني . ومن ثم تركتها فأعتنت بها النسور وحمتها من الخطر حتى اكتشفها حكيم آخـر ورباهـــا وسميت شاكونتالا اي (التي حملتها الطيور) (١١) .

ويذهب جيمس فريزر في كتابه الغصن الذهبي الى القول ان الاسطورة ما هي الا البقية الباقية من العـــادة القديمـة في تعيين ملـك وملكـة لمدة معينة فقط . وان سميراميس لعبت دور الربة الام والملك القسيس لقــي حتفه . وهنا يستشهد فريزر بما اقتبسه يوحنا الانطالي من سنكللوس حيث يقول (ان الاطلال التي تقترن اسماؤها بسميراميس في انحاء آسيا الغربية هي قبور عشاقهـا الذين كانت تدفنهم أحياء) اي بعد انتهاء مــدة حكمهم القصير . وقد شارك بعض العلماء الاستاذ فريزر رأيـه هذا وزادوا اليه بان شهرة قصة سميراميس نفسها تدل على الرغبة في احياء عبادة الالهة الام .

ويزيـد أوفيد الكاتب الرومانـي بـان احد احفاد سميراميس بولي ديمون الذي ذبحـه برسيوس بعـد أن اطلعه على راس مدوسا في فلسطين محولا اياه الى حجـر لان بولي ديمون أراد اخذ زوجة برسيوس لنفسه . وتعيد هذه الرواية الى ذاكرتنا قصة وقــوع نينوس في غرام سميراميس بباكتريا .

وقد ولع كتاب العصور الوسطى والحديثة ايما ولع في قصة سميراميس ، فأيسكو كتب مأســاة سماهـا سميراميس عرضت في لندن سنة ١٧٧٦ آخذا القصة من كتابات الكاتب الفرنسي فولتير وهي تشبه كل الشبــه رواية ديودوروس الصقلي . ولكنها تظهر في القصة المرأة التي قتلت زوجها وندمت على فعلتها ببناء قبر عظيم لـه ومن ثم أراد ابنها نينياس الانتقام لابيه فتخفى في شخص اسوريس وتزوج سميراميس قاتلا اباها بعد ذلك (١٢) . وذكر قصتها ايضا كل من ويليـــام شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) وجون ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) وادموند سبنسر (١٥٥٢ – ١٥٩٩) . فشكسبير في احدى مسرحياتـه تيتوس اندرونيكوس يذكـر تامورا ملكة القوط بأنهـا سميراميس ، وبعدها يقتل ابن تامورا ابن الملك الروماني باسيانوس عشيــق لوفيانـا ابنـة تيتوس أندرونيكوس الضابط الروماني الذي حارب القوط (١٣) . وفي مسرحية أخـرى لشكسبير يذكـر لنـا حب سميراميس للمتعـة الجنسية (١٤) . وذكر بيرون في مقطوعة له شجاعتهـا وبلاءها الحسن في باكتريا (١٥) .

فمن هي سميراميس هذه ؟ وماذا يذكر لنا التاريخ عنهـا ؟ سميراميس هي الملكة الاشورية (شممورامات) زوجة الملك الاشوري شمشي – اداد الخامس المتوفـي سنة ٨١١ ق.م . ولما مات زوجها كان ولدها الوحيد لابيه وولي العهد قاصرا كما يظهر ، فصارت وصية عليه لمـدة ثلاث سنوات ٨١١ – ٨٠٨ ق.م حكمت بموجبها بـلاد اشور – وعلى هذا فالمصادر اليونانية صورتها ومثلت حكمها وحددته بحوالي ٩٠٠ سنة قبل ولاية سميراميس الحقيقية . ولقد عثر الاثريون على مسلة من بلاد اشور عليها أسماء بعض الملوك والموظفين الكبار . وكان اســم شممورامات (سميراميس) عليها كزوجة لشمشي اداد الخامس . والنقش الثاني وجد في مدينة كالح مكتوب على تمثال للاله نابو معنون الى الاله نفسه من حاكم البلدة بل – تارو – الوما ، وفيه يسأل الاله ان يعطي الصحـة والعافية الـى الملكة سميراميس والملـك اداد – نرارى ابنها (١٦) .ومجرد ذكر اسمها يدل على انها قد تمتعـت بمركز محترم . وفعلا يخبرنا التاريخ بان سميراميس الاشورية قد وسعت رقعة الامبراطورية الاشورية ودحرت جيوش الميديين والكلدانيين . وفي زمن الملكة سميراميس دخلت المقاطعة كوازانا ضمن حدود اشور . وفي سنـة ٨٠٨ ق.م غزت الجيوش الاشورية بلاد المناي الى الشرق بقيادة نركال – ايليا الذي لمع اسمه فـي كـل الحروب والانتصارات زمن هذه الملكة (١٧) .

ومن المؤرخين مـن يرفض القول بـان سميراميس المصادر اليونانية والارمنية والرومانية قد قصدت الملكـة الاشورية شممورامـات ، ومنهم الاسـتاذ فنكلر (١٨) . ويذهب لهمان هوبت الى الاعتقاد بان سميراميس ربمـا كانت من الاسرى التي جلبها الاشوريون مــن الجنـوب وتزوجها شمشي اداد الخامس خاصة وان اكثر المصادر تجمع على اصلها البابلي ، ونص البعض على ذكر احتمال وجود علاقة بين اساطير عشتار وتلك التي نسبت الـى سميراميس (٢٠) .

دنفر – كلورادو **سامي سعيد الاحمد**

لا جدوى

أنا وافتكاري .. كم تجادلنـا سدى !
كاليـم يقـذف موجـه ويــرده
ممـا يهيـن النفـس ان جدالنـا
يضنـي ولا يجـدي فتيـلا جـده
أسرفت فـي طلب الخيال فلم أزل
كالصـب يضـرع والحبيب يصـده

حلب **علي الناصر**

الى البير أديب

يا هاديا خلف الستائر يقبع … والحبر زادك واليراع الطيع
من نور عينك كم وهبت لتائه … سار الى مجد الذرى يتطلع
وسخوت، فيصمت الدجى، متصوفا … تعطي بقية ناظر وتوزع !
خمسا وعشرين انقطعت لعزلة … متنسكا تبني النفوس وتصنع
متواريا والساح في جنباتها … فدم يصول ومدع يتنطع
ومكلف بالشر ينفث سمه … ويرى له في كل بغي اصبع
يكفيك ما تروي بصمت سحابة … وتبث من ضوء الحروف وتزرع
شرف البنفسج ان يضوع مخبأ … متواضعا وهو السني الاروع !

يا مرسل النفحات كم من ناشيء … امسى بزيتك يستنير ويبدع
ومواهب غشى فرائدها الثرى … فاذا بها الماسات عندك تلمع
كم جلسة للشعر اخوانية … ننسى بها الكدح الشقي ونهجع
ونعيش بالمثل العزيزة لحظة … سحرية لنعود فيها نفجع
والمدعون النبل في نزواتهم … لا يعلمون بما يرى او يسمع
هم كالنعامة حين تغرز رأسها … في رملها وبوهمها تتقنع
يتخيلون بانهم في نجوة … من اعين بسنى الحقيقة تسطع
وتثور في وجه الضياء نفوسهم … اذ تستشف وبالصراحة تصفع
يا للغباء ، ايجهلون بانهم … فقدوا الصفاء وضيعوا ما ضيعوا
وبان في زيف القناع وليله … تخفى الوجوه وليس يخفى البرقع !

يا باسما للصحب في مرح الصبا … كيلا يبوح بما تكن الاضلع
ومسلسلا للناس ذوب فؤاده … فرحا يضيء .. ونفسه تتقطع
اين الذين مهدت تربة مجدهم … فتنعموا بثمارها وتمتعوا
ونسوا ، باغداق النعيم ، معلما … في زحمة الابواب لا يتسكع
ويروح يزحف والمديح بخوره … ويظل يصطنع الولاء ويخضع
ليكافئوه بمنصب في مثله … تشرى الضمائر والمواهب تصرع
ولأنت من ركل المناصب ثائرا … في وجه من غصبوا البلاد وروعوا
والخائنون على مسارح غيهم … كثر .. الى بذل الكرامة نزع !

يا زاهدا بالمال في العصر الذي … يحني الجباه لمالكيه ويضرع
ويظل مثل البحر في هيجانه … يهفو الى النهر الصغير ويطمع
لو شئت كالغير الثراء لنلته … واقمت في النعم السليبة ترتع
لكن ، وانت مهيأ لرسالة ، … آثرت بالبلغ الشريفة تقنع
وعلمت حين تكن في اعماقنا … طيب الرسالات التي تتضوع
ان السعادة في عطاء نفوسنا … ونعيمها ما فاض منها ينبع
وبان هذا الخارجي بهارج … بسرابها تغري الظماء وتخدع
لي في الاديب اذا انتسبت امومة … اشدو بيوم وفائها وارجع
وهناك في دنيا العروبة فضلها … فضل له في كل قلب موضع
هي واحة الملهوف في صحرائها … يأوي اليها في الهجير ويهرع
وحروفها للتائهين بليلها … شعل على قمم الهداية شرع
يمضي الزمان بشامخات قصورها … وبناؤها الدهري لا يتزعزع !

فؤاد الخشن



بقلم جورج سالم

لم يدهش س .. حين تلقى البرقية ، فقد كان يعلم حق العلم انها آتية ذات يوم . لهذا شعر بشيء من الضيق والانقباض والالم . وتمنى – وهو يعرف ان امنيته امر مستحيل لا سبيل الى تحقيقه – لو كان بالامكان ارجاء ذلك الى موعد آخر . ومع ان ما جاء في البرقية كان كلاما موجزا واضحا لا غموض فيه ، فقد اعاد قراءتها غير مرة . من غير ان يعرف لذلك سببا او هدفا . كانت البرقية تقول : « ستعود الينا على اول طائرة تقلع من المطار ، صباح الغد » . وكان ذلك اشبه بالاوامر التي يصدرها قائد لجنده في معركة سريعة ولعل اكثر ما آلمه انه لم يهيىء نفسه لهذه الرحلة المفاجئة البعيدة التهيئة الكافية . لكم تمنى لو انذر قبل فترة طويلة ، أو قصيرة على الاقل ، بهذه الرحلة بحيث يتدبر شؤونه ويعد اموره . صحيح أنهم اعلموه حين جاء الى هذه البلدان ان اقامته فيها مؤقتة ، وانه انما جاء اليها لينفذ ما اوكل اليه من اعمال . وأنهم سيستدعونه متى انتهى عمله او حين يرون ان عليه ان يعود ولو لم تنجز أعماله ، اذ سيرسلون شخصا آخر يتمها ، فلا علاقة له بذلك البتة . ولقد مرت به فترة ، بعد وصوله الى هنا ، كان يفكر فيها في تلك البرقية التي حدثوه عنها، ومع كر الايام اغفلها وتناساها، وان كانت تخطر له بين حين وآخر . ولهذا فلم يكن له ان يفاجأ بهذه البرقية ، ولكن ذلك كله لم يمنع عنه شعوره بهذه الغصة التي تحز في حلقه كالسكين .

وتطلع الى ما يحيط به في منزله الصغير فرأى اكداسا من الاشياء ، وشعر بالحيرة . ماذا سيفعل بها . وماذا يأخذ منها وماذا يدع ، وخطر له ان يتفحصها ويفرز الاشياء الهامة منها ، ويبيع ما لايستطيع اخذه معه ، او ما ليس له قيمة . الا انه قدر ان مثل هذا العمل يتطلب وقتا طويلا وجهدا كبيرا ، وليس في وسعه ان يقوم بذلك الان ، فالنهار قد مضى أكثر من نصفه ، ولم يبق لصباح الغد الا ساعات معدودات ، مهما كان عددها فلا بد ان تنتهي . فقرر ان يترك كل شيء في مكانه ويمضي دون ان يأبه بذلك . واقتصر على استخراج ثوب جديد له فارتداه وانطلق مسرعا نحو فتاته لينبئها برحيله ويودعها ، ويقضي معها هذه الساعات الاخيرة التي بقيت له في هذا البلد .

وصح ما توقعه من دهشتها والمها ، حتى كادت عيناها تغرورقان بالدموع ، ومع انه كان قد اعلمها منذ زمن بعيد ، بأن اقامته قصيرة الامد ، مؤقتة ، في هذا البلد فانها تلقت نبأ رحيله وكأنها تسمع به للمرة الاولى ، او كأنه أول انسان يسافر امامها . وعمد س .. الى التخفيف عنها ، ثم اصطحبها الى مقهى هادىء بعيد ، يقوم على تخوم البلدة ، في منطقة جميلة تغمرها أشجار السرو والصفصاف ، وقال لها :

– سنقضي معا هذه الساعات الاخيرة من هذا اليوم ، حتى آخر ساعاته .

ولم تجبه ، بل ضغطت على ذراعه ، كأنها تخاف ان يفلت منها ، ولم تتفوه طوال الطريق بكلمة . كانت المفاجأة قد اذهلتها ، وكان الالم يرتسم على وجهها بخطوط عميقة حادة .

لم يكن في المقهى رواد كثيرون ، ان هم الا عدد من الاشخاص انتثروا، في بعض أرجائه . ولبثا صامتين مدة لا يعرف س .. كم طالت . كان يبدو كل منهما مستغرقا في تأملاته الخاصة . ولكنهما كانا ، في الواقع ، يحومان في حلبة واحدة : هذا السفر السريع المؤلم المفجع . رفعت الفتاة راسها وقالت ، وهي تعرف سلفا ان لا فائدة من قولها ، ومع ذلك فقد كان شيء ملتهب حار يحدوها على أن تقول له :

– أما من سبيل الى الغاء السفر او ارجائه ؟ .

لم تنتظر الجواب وحاولت التجلد كيلا تفضحها دموعها . وقالت في نفسها : « لنرجيء ذلك الى وقت آخر ، حين يختفي بعد ساعات ويغيب في امواج الفضاء » .

أدرك س .. أنها عرفت جوابه ، وأنها كانت تعرفه قبل ان تقول ما قالت فالتزم الصمت .

نظر الى الشمس تلملم خيوطها الصفر كأنها حاو بسط اشياءه على الارض طوال النهار ، وقرر من بعد ان يعود الى منزله فراح يجمعهما لا متباطئا ولا عاجلا . ومر بائع الجرائد الكهل حاملا على ذراعه مجموعة كبيرة منها ، فأومأ اليه س .. أن يقترب وابتاع جريدة دون ان يعرف لماذا ، ودون ان يحدد ايها يريد . وراح يلقي على صفحاتها نظرات مسرعة خاطفة . ثم نظر الى الفتاة وابتسم ابتسامة سريعة شاحبة :

– ما الذي يحدوني على معرفة أخبار العالم وتطوراته .

فهزت رأسها موافقة : صحيح .

ثم أضاف : وكذلك الاخبار المحلية لم تعد تهمني .

وقالت بالحركة نفسها : صحيح .



ولكنها رأته وقد استوقفته احدى الصفحات فاستغرق فيها أو هكذا بدا عليه . قالت له وكأنما تكـــره نفسها على الكلام : **اين انت .**

فأجابها فيما يشبه البرودة :

ــ في صفحة الاموات .

قالت بجدية صامتة :

ــ انا لم افهم قط .

فأجابها :

ــ معك حق ، وانا كذلك ، مـن يدري ... القى الصحيفة جانبـــا وراح يتأملها .

كانت تصغي اليه ، أكان يوجــه اليها الكلام أم كان يتفكر بصـــوت عال : « اشعر ان السنوات التـــي عملت فيها ههنا واشعر ان السنوات التي عرفتك فيها واحببتك خلالهـا **قصيرة جدا ، مرت كلمح البصر .** اما اليوم الذي تم فيه لقاؤنا فأراه بعيدا ، بعيدا كأنه موصول ببدايـــة الابديـــة .

ثم وجه كلامه اليها قال :

ــ لا اريدك ان تتألمي . حاولي ان تنسي ولسوف تنسين .

قالت باقتضاب : لا .

فأجابها : الزمن كفيل بتسويـــة الجراح .

فسألته :

ــ الـــن ترسـل الي رسائل او اخبارا ؟

ــ لا ارى حاجـة الى ذلـك ولا فائدة .

مسحت دمعة صغيرة افلتت منها رغما عنها وقالت : الن تطمئنني عن وصولك ؟

ــ سأصل ما في ذلك ريب .

فقالت ملتاعة :

ــولكن الى أين ؟ الى اين ؟

وشرد لحظة وهو يردد في نفسه « الى أين ؟ ثم رفع رأسه **وقال بلهجة** حاول ان تكون طبيعية :

ــ الى المكان الذي جئت منه .

ــ لم تحدثني عنه قط ، اتـــراك تتذكره في وضوح ؟

ــ كـلا !

وعـــاد كل منهما فـلاذ بصمته وبشريط مـــن الماضي فيه آمـال شتى ، وشيء من المباهج والافراح وبعض الآلام والاحزان ، اقبـــل النادل يسألهما ماذا يشربان . لـم يسألهـا هذه المـرة رايها ، وقـال للنادل فورا :

ــ فنجانين قهوة ، سكر قليل .

عادا الى نفسيهما فور اختفائه .

وكأن طرأ **خلل خفيف على مســيرة** الذكرى ثم لم تلبث ان تابعت مسيرتها . همست بصوت ضنين خافت يخاف ان يسمعه احد ، ولم يكن بالقـرب **منهما انسان :**

ــ ومع ذلـك فقد كانت الايـام جميلة . وكانت علاقتنا جميلة .

فتمتم كأنه يصلي :

ــ جميلة جدا بحلوها ومرها .

ــ لم يكن فيها شيء مر .

ــ بل قولي لقد نسينا كل مرارتها

فسارعت الى القول :

ــ من المؤسف ان تتوقف .

ــ من المؤسف جدا .

ووجد نفسه مكرها ان يلقي عليها هذا السؤال : اتعرفين لماذا كانت جميلة ؟

ــ **اعتقد انني اعرف ، ومع ذلك فقل رأيك .**

قال لهـا ببساطة : لانها كانت صادقة خالية من الزيف والخداع .

فأيدته بحركة من رأسها .

تناهت اليهـــا اصوات سيارات قادمة من بعيد ، فالتفتا عن غـــير قصد .

ــ ماذا هناك :

ــ **لا ادري . ارى موكبا مـــن** السيارات .

وفي الواقع فقد كان هناك رتـل كبير من السيارات يتقـدم ميممـــا الجبل . ولم يلبثا ان استبانا جنازة بدلالة باقات الازهار التي لاحت لهما أول الامر ، ثم سيارة الموتى وبعدها موكب المشيعين . قالت الفتاة :

ــ **هل نسيت ان المقبرة قريبة من هذا المقهى ؟**

قال لها في حسرة :

ــ **لقد نسيت اشياء كثيرة .**

ثم اضاف شيئا من الاعتذار : مـا كان ينبغي ان انسى ذلك ، ولم يكن ينبغي ان انسى **سفري قط .**

وحل بينهما جدار من الصمت لم يكن اي منهما يجرؤ على اقتحامه . شعر بالعطش فطلب من النادل ماء ، ثم عاد فطلب الماء ايضا .

قال لها وهو يهم بالوقوف :

ــ لا بد ان نذهب .

فلم تجبه ، بل نظرت الى ساعة معصمها ، كانت هدية منه . قالت له :

ــ سيكون الزمان بعـد رحيلـك طويلا ، طويلا .

ــ ليتني اعرف كيف سيكـــون الزمان هناك ؟

.. في طريق العودة قال لها :

ــ تركت الغرفة كما هي لم المس أشياءها . خذي المفتاح ومري متى شئت ، **فقد يكون فيها اشياء لـك** أو اشياء تحتاجين اليها .

قالت : لست بحاجة الى شيء .

فقال في الحاح : تركت في الدرج المقفول **كل ما استطعت ان أجمع من** مال . فخذيه ..

قالت :

ــ سأدبر امري كما دبرته كـــل حين .

ــ وهناك ايضـا بعض الصور ، كثير من الصور .

ــ هذه قد آخذها ، بل سآخذها حتما .

★

استطاع بعـد لأي ان يخلص ذاته من بين ذراعيها وهي متمسكة به بعنف ، **كثمرة ملتفة بقوة على نواتها** وسلك طريق المطار شاحب الوجه ، وخلع عليه نور الفجر الضعيف وشاحا رماديا ، احاط به ، فبدا كأنه يجابه خيوط النور . وكان آخر ما سمعه منها قولها :

ــ اما من أمل ولو ضئيلا بعودتك ، او بلقاء ؟

وأحيا بذاتي

ـ .. واكبر مني ....
شعاع .. يضويء في عمق ذاتي ..
حكايا تردد معنى حياتي ..
ولحن شرود ...
يكاد .. يكاد .. يلامس ذاتي !
وأعظم مني ...
شروق يجندل ليلي الطويل
يريح عيوني .. وقلبي الكليل
ويسكب من بعضه ..
قطرات ...
تذوب .. تذيب الظلام ..
تزيـل ...
وتبقى بذاتي !
وابدع مني ...
نسيم يدق على باب نفسي
يموسق جوي .. فيزهر حسي
وصوت طيور ...
تحوم .. تغني بوحي الضياء
تجمع حولي .. شتيت الرجاء
يفيض هناء ..
صدى أمنيات .. سكبت عليها
ستار الفناء ..
تعود لذاتي !!
وأجمل مني ...
دعاء .. اعيه بغير حدود
وأصغي اليه .. يفك القيود
وليس كلام .. !
يفوق .. يفوق معاني الكلام
وتسجد نفسي ..
بمحراب نور .. يذوب دعائي

ويرقى الى الله ...
رغم القتام !!
واكرم مني ...
ربيع .. يفيض بعمق كياني
وشمس تضوع بأسمى المعاني
فينمو الحنان !
وتسقي الجداول في جذورا
وتثمر روحي .. معاني الامان !
وتحلو بذاتي !
وابهج مني ...
هناك بعمق شغاف الفؤاد
هناك .. بطيات شوق تعاد
رفيفات نعمى
تبلسم جرحي .. وآلام فاضت
بهمس يسيل ..
يفيض عذوبه
فيمضي انيني .. يذوب السهاد
وأسمو بذاتي !
وأروع مني ...
صفاء .. يغذي أصول حياتي
عيوني تذيع .. انتصار هباتي
بوهج الصفاء ،
ويرتع يومي .. وامسي مروجا
تعج سناء .. تموج ضياء ..
أفيء بعمري ..
ظلال الصفاء ..
وأحيا بذاتي !!

الزرقاء ـ الاردن — للي كرنبك

قال مبتسما : انت تعرفين كـل شيء ، ولعل الامور لم تبد واضحة وضوحها الان . لا ..

شعرت ان كلمة . لا .. التـي لفظها قلبه قدانطلقت من فمه وراحت تتسع وتتسـع حتى شملت كل الفضاء الذي يحيط بها ثم راحت تصلب رويدا رويدا حتى استمالت ارضا صلبة انطلقت منها الطائـرة التي اقلع فيها وحيدا وبسطـت جناحيها في المدى البعيد . وظلت ترقب الطائرة بكل حواسها حتى صغرت وصغرت وغدت اشبه شيء بحبة رمل صغيرة تلتمع في ضـوء خيوط الشمس التـي اخذت تملأ الكون . ثم تلاشت وتلاشى معها س.

حلب — جورج سالم



نقــولا يوسف

نقولا يوسف .. الكاتب الانسان

بقلم عبدالعزيز جادو

* * *

عرفت الكاتب الاديب والصديق القديم « نقولا يوسف » ـ منذ صباي قبل ان اراه ـ من مقالاته الباكرة وقصائد الشعر المنثور التي كان ينشرها في صحيفة « السياسة الاسبوعية » بالقاهرة عام ١٩٢٦ وما بعده ، حتى التقيت به وعرفته بالاسكندرية منذ عشرين عاما وكنت يومئذ أصدر بها صحيفة « الشاطيء » منذ عام ١٩٤٨ فكان لنا في رحابها ندوات وجلسات وأتيح لي أن اطلع على صفحات حياته ومطبوعاته ومخطوطاته ، وخطر لي مرارا ان أكتب عنه هذه الكلمة في المكان المفضل الذي اعتاد ان يؤرخ فيه لاعلام الادب والفن أعني مجلة « الاديب » الغراء ـ وهذه الكلمة وان لم تكن اول ما ينشر عنه من كلمات ونقدات بأقلام أشرت الى بعضها فيما يلي ، فهي في اعتقادي أقرب ما قيل فيه الى الحقيقة والواقع . وهو وان كان معروفا في أوساط الاسكندرية الثقافية خاصة وخارجها عامة فان أكثر ما كتب عنه كان من زوايا محدودة تصور جزءا من كل ، ولا ادعي ان مقالتي هذه صورة الكل .

مؤثرات النشأة الاولى

ولد نقولا يوسف بمدينة دمياط (في ١٢ مارس ١٩٠٤) حيث عاش آباؤه وأجداده منذ أجيال ـ وكانوا كسائر أهل هذا الميناء يشتغلون بالتجارة مع الشرق الادنى وجزره ـ ويتصاهرون معهم ، ويتبادلون ايضا العادات والتقاليد الشرقية غالبا ـ وكان رجالهم يلبسون العمامة والقفطان ، والنساء يلبسن « الحبرة » الى اواخر القرن التاسع عشر .. وقنعت هذه الاسرة بكفاف يومها فلم يملك واحد منها ارضا ولا مالا ، ولم يتطلع الى وظيفة او منصب ولم يتخط التعليم الابتدائي ، او يشتغل بالكتابة والادب ، وان كانت هناك ثقافة دينية متوارثة لها كتبها وقصصها ، وشعرها ونثرها ، ولها سير اوليائها وقديسيها ، وما يقام لهم من أعياد ومواسم يشترك فيها الكبار والصغار ـ بل لقد كان احد أجداد أديبنا واسمه « جبرائيل وهبه » راعيا لكنيسة دمياط عام ١٨١٣ ـ تنطبع تلك الصور في ذاكرة الطفل وتحرك خياله وتطوف بهذا الخيال من فجر الخليقة الى حديث العصور ، وتجاور هذه الصور شبيهات لها من دين عريق آخر ـ فثمت المساجد القديمة والمآذن الشامخة ومواكب رمضان وايام العيد ـ « فتتآلف موسيقى النواقيس مع اناشيد المؤذنين وتمر لحظة تغمر فيها المدينة في بحر من الموسيقى الخاشعة العلوية .. » (١) .

وفي أرجاء هذه المدينة القديمة الجميلة يرتع الطفل مع صحابه في العطلات المدرسية على شواطيء نيلها وبحيرتها وفي حقولها وغابات نخيلها ، ويطوف بالمساجد والكنائس والقلاع المهجورة ، والخانات المتهدمة ، في جو مشبع بالذكريات والاحداث والاساطير .

وفي ليالي الشتاء الطويلة ينصت الطفل الى حكايات العجائز اللاتي نشأ بينهن ـ وبخاصة قصة مربيته الحبشية « سعادة » (٢) التي رعته صغيرا حتى وفاتها (١٩٢٠) وكيف خطفها النخاسون من قريتها عند حدود الحبشة والصومال وهي طفلة في السابعة واشتراها جده ورعاها كابنته ـ فشب أديبنا يحب الشعوب الملونة ويهتم بقضاياهم وبخاصة التفرقة العنصرية .

وتلقى الصبي تعليمه الابتدائي « بمدرسة دمياط الاميرية » ـ مبادىء العربية والانجليزية والمواد الاولية وحاز منها الشهادة الابتدائية في صيف ١٩١٧ ، واستطاع ان يقرأ كل ما يقع في يده من روايات بوليسية وغرامية مترجمة الى العربية ، ومسرحيات تتخللها الاشعار ، ويشهد تمثيليات الفرق الزائرة للمدينة ومصيفها « رأس البر » ، وفوق ذلك ما كان يتطلع من مشاهداته الخاصة لصور الطبيعة وعجائبها وهو يطوف بين النيل والبحر والحقول ومجتمعات الناس في الاسواق والبيوت .

وكانت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) قد رمت شواظها على تلك المدينة المطمئنة فاغلق ميناؤها وتوقفت مراكبها وكسدت تجارتها وعمها الغلاء ، وافلس والد أديبنا التاجر وعرفت أسرته الفقر ، فانتقل بعائلته الى القاهرة التماسا للرزق وللالحاق أبنائه وبناته بمدارسها ـ وودع الصبي مسقط رأسه في صيف ١٩١٧ ومعه ذخيرة من الذكريات والانطباعات لازمته طويلا وأرناه يصور بعض هذه الذكريات في كتاب صباه « الفردوس » ١٩٢٢ ـ وفي الفصل الاول من روايته « الهام » ١٩٣٧ وفي عدد من أقاصيصه فيما بعد . كما ظل ينقب عن تاريخها منذ القديم في مختلف المراجع العربية والاجنبية وينشر في صحفها الاقليمية ـ كما سيأتي فيما بعد .

انتقلت هذه الاسرة في سني الحرب من موطنها الهاديء وجوه الطلق الى خضم العاصمة ، وتكدست في بيت صغير بالفجالة وأخذ ينفرط عقدها تباعا في بضع سنوات ولم يبق منها على قيد الحياة غير أخوين وأمهما وكان اديبنا اكبر هذين الاخوين . وأراد له والده ان يتابع تعليمه الثانوي على الرغم من ان المدارس الثانوية وامثالها كانت يومذاك مقصورة على القادرين على دفع مصروفاتها ولكن شاء الحظ ان تقرر وزارة التعليم قبول عدد محدود من صغار السن المتفوقين بالمجان في مدارسها وكان هو في مقدمة المقبولين على أن يلتحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالاسكندرية لقلة الاماكن في غيرها .

وحمل الصبي حقيبته في خريف ١٩١٧ وترك عائلته بالقاهرة والتحق بالقسم الداخلي بمدرسة رأس التين الثانوية . وفي هذه المدرسة عرف عددا من معلميه المتفوقين في الادب والعلوم منهم : الشاعر الكبير عبد الرحمن شكري ، والمؤرخ شفيق غربال ، والشاعر الفرنسي

فرناند ليبرت وبعض اساتذة اللغة العربية ـ واثار عبد الرحمن شكري اعجابه باطلاعه الغزير وشخصيته البارزة فاقتنى دواوينه الشعرية ومؤلفاته النثرية واخذ يقرأها منذ ذلك العهد ، ثم ظل وفيا لاستاذه ولازمه وراسله في شيخوخته ومرضه حتى وفاته عام ١٩٥٨ ـ ورأيناه عام ١٩٦٠ يقدم ديوانه الشامل الذي شارك في اخراجه ـ وفي تقديمه للديوان يذكر عهد تتلمذه على استاذه بمدرسة رأس التين بالثناء والتقدير . (٣)

واذا كان يسمح لتلاميذ القسم الداخلي بهذه المدرسة بالخروج الى المدينة ايام الجمعة ، كان أديبنا ينطلق الى الفضاء الرحب كعصفور فتح له باب القفص ، ويبدأ بالمرور على باعة الكتب بحي رأس التين ويشتري من كتب الادب بما معه من قروش ليقرأها بالمدرسة في ساعات المذاكرة وقرأ لاول مرة مؤلفات المنفلوطي وحافظ ابراهيم وقاسم أمين والمويلحي ومقدمة ابن خلدون ـ ثم يتجه الى شاطيء البحر عند الميناء الشرقي ويحاذيه حتى يصل الى قلب المدينة فيطوف بشوارعها ويشاهد معالمها ويعود الى مأواه وقد ادخر في كل اسبوع صورا جديدة لهذه المدينة الكبيرة .

ويحل عام ١٩١٩ وتشهد البلاد ثورة تحررية عارمة تطالب بالحرية والاستقلال ، ويشترك التلاميذ في الاضراب والمظاهرات والهتافات ، ويتعرضون لبنادق الانجليز ، ويندمج أديبنا في مواكب الثورة ، وتغلق المدارس مرة واخرى فيحمل حقيبته ويعود الى القاهرة ليسير في مظاهراتها ويستمع الى خطب سعد زغلول والى اناشيد وهتافات ثورية ـ وتنقضي اعوام ثلاثة تلغى بعدها مدرسة رأس التين لتضم الى مدرسة اخرى ، ويخير طلبتها في النقل ويختار المدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة ، ويودع مدرسته السكندرية في يونيه ١٩٢٠ ليكمل عامه الدراسي الرابع في العاصمة ويحوز الشهادة الثانوية « البكالوريا » في يوليه ١٩٢١ .

هنا القاهرة ـ وأديبنا منذ صيف ١٩٢٠ يعيش تحت سمائها ، ويتنقل بين معالمها واحيائها ومكتباتها واسواقها ، وفي دار الكتب استطاع ان يقرأ ما لا يستطيع العثور عليه او شراءه من مؤلفات ومترجمات ، وكان يكتب خواطره ومذكراته لنفسه لا يراها غيره ثم بدا له ان يكتب للناس فأخذ يترجم بعض الكتب من الانجليزية الى العربية كان اولها كتاب « اليابان » لجون فينمور وطبع له عام ١٩٢٠ وكتب له مقدمة عن الغرض من ترجمته وذيله بفصل من قلمه عن نهضة اليابان الحديثة وتحضرها ، ومما ذكره في مقدمته : (٤)

« .. واني اليوم اشعر انني قمت ببعض من الواجب على نحو امتنا المصرية الناهضة بتقديم هذا الكتيب لابنائها فدخلت في مضمار التنافس والتقليد حتى سبقت اكثر أمم الغرب العظمى واظهرت للعالم أجمع ان الشرقي لا يفرق عن الغربي اذا ما ارتشف من مناهل الحضارة والعرفان ، وبرهنت ان ذلك الشرق المنبوذ لا يلبث حتى ينال قسطه من الرقي والعمران .. »

ثم ترجم قصة ملخصة عن أوديسية هوميروس وضع لها عنوان : « بطل ترواده » وطبعت عام ١٩٢١ وقدمها بفصل عن الادب الاغريقي القديم وعن الشاعر هوميروس وشعره ـ ومما جاء بها : (٥)

« ... وقد ذهب البعض ان لا فائدة من تعليم الناشئة أدب اللغتين الاغريقية واللاتينية لانهما مهملتان لا يتكلم بهما ـ ولكن المعلوم ان في تعلم الاداب القديمة فوائد جليلة تترك في الناشئة اثرا مباركا ـ وفي مطالعة تلك الكتب رياضة نفسية لا تخفى . وكم تغرس في نفوس دارسيها روح الاخلاص في العمل ومحبة الوطن وتبعث فيها روح الجمهورية . بله ان في تلك القصص القديمة عبرا جليلة واخلاقا نبيلة ، ويبعد شعرها النفس عن تلك الحياة المادية التي يعب عبابها ـ بجميل خيالها وبديع معانيها وحسن اساليبها .. »

ثم ترجم كتاب : « من الاعماق » لاوسكار وايلد ـ طبع عام ١٩٢٢ ـ وعلق في هوامشه الكثير من الشروح ، وقد دفعه الى تعريب هذا الكتاب ما به من روح شعرية صوفية لا مادية .. (٦)

كما ترجم مسرحية « العدالة » لجون جالسورثي وترك لاحد زملائه الطلبة ترجمة فصلها الاخير ومثلها طلبة كلية المعلمين العليا بناديهم مساء ١٥ ابريل ١٩٢٣ وكان هو مدير المسرح ، ولم تطبع هذه المسرحية (٧) . ثم ترجم كتابا تاريخيا بعنوان « توت عنخ آمون » ظهر عام ١٩٢٦ وبه فصول شتى عن قدماء المصريين (٨) . وقد علمت من صديقي نقولا يوسف انه كان يترجم هذه الكتب في عهد التلمذة ليبيعها للناشرين ويشتري بأثمانها كتبا .

وكان أديبنا قد التحق في اكتوبر ١٩٢١ بكلية المعلمين العليا بالقاهرة ـ قسم الاداب ـ بعد فترة من الحيرة بحث خلالها عن عمل يساعد به اسرته فلم يوفق لاسباب اهمها ان تعليمه كان الى ذلك العمر نظريا أدبيا لا يعين على كسب الرزق لمن في سنه ، واضطر الى تمضية أربع سنوات اخرى بهذه الكلية نال بعدها اجازة التدريس « ليسانس التربية والاداب » عام ١٩٢٦ ـ وهي تخول له العمل بمهنة التعليم في المدارس الحكومية والاهلية ـ وهي المهنة التي مارسها منذ تخرجه حتى عام ١٩٦٠ حين استقال من الوظائف جميعا ليشتغل بالقلم وحده ..

وقد فتحت له هذه الكلية عددا من النوافذ المطلة على الميادين الثقافية الواسعة اذا شاء ارتيادها ـ كما فعلت مع أدباء كبار غيره (٩) ـ وكان من موادها الاداب العربية والانجليزية والفرنسية والتاريخ والجغرافيا والفلك ، وعلم النفس والتربية .. فكان يخرج الى تلك الميادين باحثا متوسعا واعانته اجادته للغة الانجليزية على ان يقرأ فيها الكثير من القصص العالمي والكتب الادبية والتراجم والفلسفة والتاريخ ونحوها . وكان بهذه الكلية مكتبة كبيرة اخذ يستعير منها ما شاء من المؤلفات النادرة .. وتعرف في هذه المكتبة بأمينها الشاعر احمد رامي ، وبالفيلسوف المستشرق الاسباني الكونت دي جالارزا وكان له مع هذا الفيلسوف جلسات لا تحصى استفاد منها ومن محاضراته ومحاوراته الفلسفية (١٠) .

وفي خلال طلبه للعلم في هذه الكلية كان ينشر بواكير مقالاته في بعض الصحف والمجلات منذ عام ١٩٢١ وبدأها عامئذ بمقالين عن نهضة اليابان في صحيفة « النشرة الاقتصادية » وبعدة مقالات ونبذ بمجلة « النيل » الاسبوعية بالقاهرة منها مقالات عن فن التمثيل بمصر .. ونشرت له جريدة الاهرام في صفحتها الاولى مقالة عن « الادب العربي في المهجر الامريكي » (٢٥ سبتمبر ١٩٢٥) ، واخرى عن أصلاح التعليم الاهلي (٢٧ ديسمبر ١٩٢٥) بينما ظهرت محاولته الاولى في التاليف عام١٩٢٢ في شكل قصة من الشعر المنثور سماها «الفردوس» .

وعندما تخرج بكلية المعلمين عين مدرسا باحدى مدارس وزارة التعليم في حي سيدنا الحسين بالقاهرة . مدرسة اثرية في حي غني بالصور الشرقية الشعبية ما زال محتفظا بطابع القرون الماضية ـ وهناك امضى ثلاث سنوات (١٩٢٦ ـ ١٩٢٩) في ذلك الجو الشعبي دارسا متفحصا ـ وكان يكتب خلالها في صحيفة «السياسة الاسبوعية» وحمل في بعض مقالاته على الرجعية ودعا الى الاصلاح والتجديد مما أوغر صدور المحافظين ورأوا ابعاده عن العاصمة ومجالاتها الصحفية ، ونقل الى اسيوط في قلب الصعيد ـ وظل يتنقل في عمله بين مختلف المدن ، وعمل خلال عمله التعليمي في عشر مدن من بلاد الاقليم المصري فيما بين ١٩٢٦ ـ ١٩٦٠ فكان مدرسا بالمدارس الابتدائية بالقاهرة واسيوط وبالمدارس الثانوية بالزقازيق والمنصورة ومدرسا اول برشيد وأستاذا للادب الانجليزي بمعهد المعلمين الخاص بالاسكندرية وناظرا لاربع مدارس في ثلاث مناطق ـ وبعد ان قضى حوالي خمسة وثلاثين عاما في خدمة التعليم تتلمذ عليه خلالها بضعة الوف من التلاميذ الذين وصل الكثير منهم الى اعلى المناصب والمهن ، قدم استقالته في يونيه ١٩٦٠ وترك جميع الوظائف والمناصب، ليتفرغ للبحث والدرس ـ وكان

قد اضناه المطاف وارهقه العمل وقيدته الوظيفة وانفق فيها زهرة العمر .. ومع ذلك استطاع خلال اوقات الفراغ والعطلة الصيفية ان يكتب وينشر مئات المقالات والقصص ويضع عديد الكتب ، ويقوم في بعض الاجازات الصيفية برحلات ثقافية على نفقته ـ فزار تركيا واليونان ثم لبنان وفلسطين ، ثم فرنسا وسويسره وايطاليا ـ وطاف بجميع انحاء الاقليم المصري ، وخرج من هذه الرحلات بمذكرات هيأها لتكون كتابا في ادب الرحلات لم ينشره بعد وان كان قد نشر بعض فصوله في المجلات او في سياق القصص .

الشعر والشاعر

بدأ نقولا يوسف حياته الادبية شاعرا فنانا يستهويه الشعر والموسيقى ويمارسهما ـ وكان للبيئة الاولى في الصبا على شواطيء دمياط والاسكندرية ـ كما سلف اثر في اشعال جذوة الشاعرية الفطرية الكامنة في نفسه واخذ ينظم الشعر ويلقي القصائد في المنتديات العامة. وكانت محاولات باكرة ينقصها الصقل كما كان مقيدا بالنظم التقليدي. ثم ما لبث ان هجر النظم ولم يعد اليه قط ـ اذ وجد فيه من قيود القوافي والاوزان ما يعوق انطلاقه في التعبير فتحول الى اسلوب الشعر المنثور ـ وكان هناك عدد من كبار الادباء العرب يمارس هذا النوع من الشعر مثل جبران والريحاني ومي وغيرهم ـ كما كان يقرأ في اعجاب شعر تاجور المترجم الى نثر انجليزي ، والشعر الاوربي المترجم نثرا الى العربية ، وايضا مطالعاته للاسفار الشعرية في كتاب العهد القديم « التوراة » وبخاصة أناشيد سليمان ومزامير داود ثم المنثورات الشعرية التي تسود بعض صفحات الانجيل .. فكان الفتى الشاعر يملأ الكراسات بقصائد الشعر المنثور ينفس بها عن نفسه في سكينة الليل كلما سئم المذاكرة المدرسية او تذكر احباءه الراحلين الى العالم الاخر متساميا باحلام اليقظة هذه عن الواقع الكئيب ـ ومن هذه الكراسات خرج الينا بكتابين مطبوعين من وحي الصبا وفجر الشباب ـ اولهما كتابه « الفردوس » ١٩٢٢ وثانيهما « نسمات وزوابع » ١٩٢٧ ـ ومع ان صديقي المؤلف لا يرى ـ كما حدثني غير مرة ـ اية اهمية ادبية لهاتين الباكورتين الشعريتين المثلتين لعهد الصبا الفج ، ويرى انه تسرع في تقديمهما للطبع فلقيا ناشرا يبادر الى طبعهما على نفقته (١١) ـ فاني اخالفه في هذا الرأي لان لكل اديب ثمراته الباكرة التي تكشف لنا عن تطوره النفسي وهنا على الاقل من الناحية السيكولوجية ـ وقد رأينا في المقدمات التي كتبها لما ترجم من كتب في سن السادسة عشرة وفي كتاب « الفردوس » الذي ألفه قبل الثامنة عشرة ـ آراء تتخطى كلها مثل هذه السن الصغيرة .

ويتضمن « الفردوس » عددا من قصائد الشعر المنثور عن الحرية والفن والجمال والحياة والحب والطفولة ، وعن الريف والبحر والناس ـ وغيرها ـ وشاء المؤلف ان يربط هذه القصائد النثرية في اطار قصة شعرية او قل ملحمة نثرية بدايتها الطفولة ، ونهايتها الموت ـ حلم شاعر فنان بائس ، متحرر الفكر متمرد على القيود ، محب للمثل العليا .

انها قصيدة طويلة منثورة في قالب قصة بسيطة الحوادث كان جديرا بالمؤلف ان يخرجها منظومة لتدخل في باب الشعر القصصي ـ ولكن الذي يهمنا هو ما ورد بها من آراء ومبادىء اذا قورنت بسن كاتبها ـ وكان هذا فيما نعتقد نظرة بعض الكبار ممن قرأوها في ذلك العام وابدوا فيها رأيهم ـ وفي مقدمتهم الفيلسوف المستشرق الكونت دي جالارزا استاذ الفلسفة في الجامعة القديمة وكلية المعلمين ـ فان المؤلف حينما اهدى اليه كتابه هذا وساله رأيه فيه ارسل اليه (في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢) يقول : (١٢)

« اشكر لك حسن ظنك حيث اهلتني لانتقاد كتابك الجميل « الفردوس » ولكني وجدت انه لا يقدر على ذلك الانتقاد احد سواك ، لان مؤلفك مظهر لضميرك ، ونقد ما في الضمير لا يكون الا بمزيد من التجارب الوجدانية والتعلم . والذي استنتجته من قراءتي هو ان الفيلسوف الحق لا يمكن ان يخلو من الاهتمام القلبي عندما يرى شابا في سن اقتناء النور يفهم شر الناس الى درجة ان يتألم منه ، ويطلب لنفسه طريقا غير الذي يسير فيه الجمهور ويتجه برقة شعوره نحو المحبة الصحيحة ويستريح بأن يتخيل ويقدر الجمال قدرا عظيما ... »

وكذلك ارسل اليه مصطفى لطفي المنفلوطي (في ٧ يناير ١٩٢٣) حين اهدى اليه هذا الكتاب ومعه كتبه المترجمة :

« ... اما الكتب التي تفضلتم باهدائها الي فبديعة جدا ـ أقل ما يقال فيها انها تبشر بمستقبل في الادب باهر ، يملأ جنبات الفضاء ، ويغمر الارض والسماء ـ ومن رزقه الله روحا قوية حساسة كروحكم وذهنا خصبا نديا كذهنكم ، فهو قمين ان يكون ذخيرة الامة في مستقبل حياتها . فليكن هذا رأيكم في نفسكم وما اعان على بلوغ ذروة العظمة مثل الثقة بالنفس والسلام » .

وظل شاعرنا خلال سني التلمذة يكتب قصائد الشعر المنثور لنفسه ويودعها كراساته فلا يراها احد غيره ، حتى تخرج من الكلية عام ١٩٢٦ وخرج الى مدرسة الحياة والعمل ـ وعزم على شق طريقه في ميدان الصحافة وبدأ بتقديم تلك القصائد المعدة للنشر ليمهد بها الطريق ، وحمل بعضها ذات يوم من ذلك العام وعرضه على رئيس تحرير جريدتي « السياسة اليومية » و « السياسة الاسبوعية » دكتور محمد حسين هيكل ، فقرأها وابدى له اعجابه بها ونشر له اولها في « السياسة » اليومية (٢٧ ديسمبر ١٩٢٦) بعنوان : « المرأة » ، ثم توالى بعدها سائر القصائد في صحيفة « السياسة الاسبوعية » خلال عام ١٩٢٧ وجمع اديبنا مما نشر منها وما لم ينشر اكثر من خمسين قصيدة نثرية في كتابه المسمى : « نسمات وزوابع » (١٣) وعرضه على صاحب « المطبعة العصرية » بالقاهرة ـ وكانت من اكبر دور النشر في ذلك الوقت ـ فطبعه على نفقته وظهر في آخر عام ١٩٢٧ وكان المؤلف قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر .

ومن قصائد هذا الكتاب ما يحمل هذه العناوين : كلنا اخوة ، صوت الامل ، على مسرح الحياة ، شجرة السعادة ، الى الله ، الى الحكمة ، الى الجمال ، الى حسناء ، الى بائسة ، الذهب ، العيد ، الشيخوخة ، اغنية الربيع ، اغنية الخريف ، الاعمى ، الموسيقى ، المرقص ، الحب الاول ، الحب الزائف ، الحب الخائب ، الحب والجفاء ، انشودة السلام ..

وكل قصائد الكتاب من الشعر المنثور ـ الوجداني والعاطفي والفلسفي ـ المصور للنفس البشرية في مختلف صورها وحالاتها بين أمل ويأس ، وتفاؤل وتشاؤم ، وفرح وحزن ، وابتسامات ودموع .. ولصور الكون ـ في الربيع والخريف ، والصباح والمساء ، والحياة والموت ، والنسمات والزوابع .

واما اسلوبها العربي السلس المكين ، فيبدو عليه مسحة من الشعر الاوربي « الليريكي » الغنائي ، والنزعة « الرومانسية » وتتناثر في بعض القصائد عبارات « ميثولوجية » تشير الى اساطير من الادب الاغريقي القديم او غيره من ادب الشعوب « الكلاسيكي » ولو انها جميعا من الادب الذاتي البعيد عن التقليد او التأثر بشاعر معين .

وتنوعت نظرات النقاد في هذه المجموعة الشعرية ، فجاء في مقدمة الناشر للتعريف بالمؤلف وكتابه : « ... وسيرى القاريء في كتابه حبه للطبيعة في مختلف اشكالها ومقته للقيود المعنوية ، وتفضيله الحياة الروحانية لقربها من الفطرة ، وهيامه بالفن الجميل وفلسفته ، وعبادته للجمال ، وميله الى التفكير المنطقي . ومن خواص فنه : الشاعرية الحساسة المتمردة والروح القوي الصريح ، والميل الى مزج الفلسفة بالشعر ، والكلاسية بالرومانسية ، وادماج الادب الشرقي في الادب الغربي ، وكذلك عدم التعصب لأي مذهب .. فهو كالطائر الحر

ابن الكون كله .. »

وكتب عنه المرحوم عباس محمود العقاد (بجريدة البلاغ ٨ ابريل ١٩٢٨) :

« ... مجموعة اشعار منثورة .. تصفحناها فاذا فيها قصائد عن صوت الامل والصلاة والشيخوخة واغنية الخريف وعلى مسرح الحياة وامثال هذه الموضوعات الشعرية — فالفينا فيها دلالة كثيرة على تنبه الاحساس ولطف الشعور وتطلع النفس نحو الكمال والخير والجمال ، فهي من احسن انماط الشعر المنثور المعروفة في اللغة العربية ، ولصاحبها الاديب فضل الصدق والشاعرية المتطلعة .. »

وكتب سلامه موسى (بمجلة الهلال — ابريل ١٩٢٨) :

« قلما يستطيع الانسان ان يقرأ الشعر المنثور ما لم تتقن صياغته ويقتصد في الفاظه حتى تقوم العبارة مقام المثل فيشتمل على الحكمة البالغة في اوجز لفظ . وهذا الكتاب من ارق ما قرانا من الشعر المنثور . وقد عالج المؤلف او بالاحرى مس بريشته كثيرا من الموضوعات مسا لطيفا ، فاسبغ عليها الوانا واضواء تترقرق فيها المعاني كما يترقرق الندى على الزهر .. وقد سبق ان نقلنا في العدد الماضي فصلا من هذا الكتاب عنوانه : « كلنا اخوة » وفصول الكتاب تجري على هذا النمط .. »

وقالت « السياسة الاسبوعية » (٢٨ مارس ١٩٢٨) :

« .. وكل قطعة منها تدور حول فكرة فلسفية في اطوار الحياة وتحليل العواطف البشرية والمظاهر النفسانية . وهي قطع من صميم الحياة تسمعك صوت الامل والياس وتصور لك الحب في مختلف مظاهره وصوره ، وتناجي فيها الحكمة والالوهية والجمال والفن باسلوب متين سلس واضح العبارات ، وخيال سام وشاعرية حساسة .. ونمط غير مقيد بأي نموذج اخر .. »

وكتب في ذلك العام عدد اخر من النقاد بما يدور حول هذه الاراء السابقة ، ولم يشتد في نقد هذا الكتاب غير ناقد الكتب بمجلة « المقتطف » بالقاهرة — فقد نشر بها مقالة بلا توقيع (باب مكتبة المقتطف — يوليه ١٩٢٨) حمل فيها عليما ورد في بعض قصائده من الفاظ « ميثولوجية » تشير الى اساطير قديمة وآلهة وثنية وكان يجب على الشاعر في رأيه ان يحدثنا عن موضوعات عصرية تتصل بحياتنا العملية الراهنة وان يتجنب الالفاظ الغريبة ..

وكان المؤلف قد تحدث من قبل في مقدمة قصة بطل تروادة — (١٩٢١) عما يفيده الاديب من الاطلاع على الادب الكلاسيكي القديم عند مختلف الشعوب وبخاصة الادب الاغريقي ومنه اشعار هوميروس والميثولوجيا — وبعد سنوات كتب الشاعر احمد زكي ابو شادي في مجلته « ادبي » عام ١٩٣٦ معلقا على ما ذكره مقدم ديوان الشاعر المرحوم عثمان حلمي : « ان ميزة هذا الديوان الوحيدة انه سلم من آفة التقليد المزري للشعر الفرنجي في العصور الوثنية ذات الالهة الخرافية ... الخ » (١٤) فكتب ابو شادي : « .. ما تزال الميثولوجيا الاغريقية خاصة منبعا لاداب الكثرة من الامم المتحضرة المؤمنة .... والصيحة التي تهيب بشعرائنا الى الاكتفاء بالمواهب الليريكية والابتعاد عن التعمق الثقافي وعدم الاكتراث له ومحاسبة انفسهم لتحاشي آثاره لا تجديهم ولا تجدي الشعر العربي فتيلا بل تجعل من يؤمن بمثل هذا الكلام فخورا بسطحية اطلاعه وابتعاده عن فتوحات العقل البشري . وما بهذا يتسامى الفن الشعري بل نخشى انه يتدلى معه الى ثرثرة لفظية ليس وراءها خير كثير . واما الكلام عن التقليد المزري للشعر الفرنجي فليس ما يمكن البرهنة عليه في اية بيئة ادبية ناضجة سواء في مصر او في غيرها من الامم العربية خاصة ... »

ولم يكتب نقولا يوسف بعد « نسمات وزوابع » ١٩٢٧ شعرا منثورا ولا منظوما ، وانصرف الى المقالة والقصة ، وان كانت الشاعرية الاصيلة لازمته طويلا في بعض قصصه كما رأينا في روايته الطويلة « الهام » ١٩٣٧ حيث تناثرت بها اوصاف الطبيعة في اسلوب شعري ، وكما رأينا في أقصوصته : « حب رومانسي » في مجموعة « هم وهن » ١٩٦٢ — وفي بعض مواضع من اقاصيصه — لقد جرفته دنيا الناس ودنيا الواقع فنزل الى الخدمة العامة معلما وكاتبا ومصلحا ومجاهدا واقعيا .

البحث والباحث

بدأ نقولا يوسف منذ عام ١٩٢١ ينشر المقالات في بعض الصحف الاسبوعية بالقاهرة وبجريدة الاهرام — بعضها بتوقيعه والبعض الاخر بتوقيعات مستعارة — ولكنه لم يسهم جديا في المجال الصحفي الفسيح الا منذ عام ١٩٢٦ عقب تخرجه من كلية المعلمين — ويبدو انه كان مزمعا على احتراف الكتابة والصحافة لولا ما أصيبت به الصحف العربية في ذلك العهد من نكسات حين كانت تعطلها الحكومات الحزبية وتشرد محرريها ..

وفي مارس ١٩٢٦ صدرت بالقاهرة صحيفة « السياسة الاسبوعية» عن دار جريدة « السياسة » اليومية — ورأس تحريرهما دكتور محمد حسين هيكل — على ان تكون الاسبوعية مقصورة على الاداب والعلوم والفنون ، وتكون اليومية سياسية خبرية ولسان « حزب الاحرار الدستوريين » .. وما لبثت الاسبوعية ان ذاعت واجتذبت اليها اقلام الادباء المحترفين والهواة — وكان من محرريها دكتور هيكل ، وطه حسين ، ومحمود عزمي ، وعبد العزيز البشري ، وعبد الله عنان ، والمازني ، ومصطفى وعلي عبد الرزاق .. الى جانب اقلام الهواة من مختلف المذاهب والاتجاهات والاحزاب — وكان شعارها حرية الرأي ويرى البعض انها كانت امتدادا لجريدة « السفور » المؤسسة عام ١٩١٥ — واجتذبت هذه الصحيفة المتحررة اديبنا الشاب نقولا يوسف فذهب كما سلف في مساء يوم من ديسمبر ١٩٢٦ وقابل رئيس تحريرها دكتور هيكل لاول مرة ، ورحب به هيكل ونشر له ما عرضه عليه من قصائد الشعر المنثور ، ثم من الابحاث الادبية والاجتماعية ، وظل ينشر مقالاته في هذه الصحيفة فيما بين ١٩٢٦ — الى نهاية ١٩٢٩ ثم اغلقت الجريدة بامر من حكومة حزبية .. وفي دار هذه الصحيفة تعرف الكاتب بعدد من محرريها مثل دكتور هيكل وابراهيم المازني وحافظ محمود وزكي عبد القادر ، وبعدد من الادباء الهواة وقد اشتهر بعضهم فيما بعد ..

ونشر نقولا يوسف في « السياسة الاسبوعية » خلال تلك الفترة نحو تسعين مقالة وبحث ومقطوعة شعرية — ومن مقالاته بها : عالم جديد على اطلال عالم عتيق ، مستقبل الانسانية في نظر العلم ، اتجاه جديد في كتابة التاريخ ، العلم ووحدة الشعوب ، ادب القرن العشرين ، نشر التعليم واصلاحه ، حجاب المرأة وأثره ، فلسفة التشاؤم ، فن الكلام .. وكانت هناك دعوة الى ادب عربي قومي يساير حركة الاستقلال السياسي ويتحدى الاحتلال القائم يومئذ ويصور الحياة الشعبية وفنونها وعاداتها في قصص ومسرحيات واغان مستمدة من روح الشعب ومؤكدة لشخصية الامة — وكتب نقولا يوسف في موضوع الادب القومي عددا من المقالات .. ثم كتب عن الادب الهندي وادب المرأة وعن عدد من المفكرين والادباء في الشرق والغرب وكان يكتب في صراحة وجرأة غير متقيد بآراء غيره مطالبا بالاصلاح والتجديد والتقدم مندداً بالنقائص الاجتماعية ، مناوئا الرجعية والاستغلال والطبقية والتفرقة العنصرية — في وقت كان فيه مدرسا بوزارة التعليم أي موظفا في الحكومة ، ولا يملك من حطام الدنيا غير مرتبه — فاوغرت كتاباته صدور الرجعيين والمحافظين واعوان الاحتلال وحاولوا من اللحظة الاولى ابعاده عن مجالات النشر وعن القاهرة ومركز الصحف — حتى تم ابعاده الى اسيوط عام ١٩٢٩ ولكنه استمر في مراسلة « السياسة الاسبوعية » من هناك حتى اغلقت دار جريدة السياسة بسبب المعارك الحزبية (١٥) — ولم يعد يفكر في ترك مهنة التعليم كمورد ثابت للرزق على ان يكتب في اية صحيفة او مجلة ويحاضر في اي مكان بجانب

مهنته الثابتة .. وبقي بأسيوط خمس سنوات كان خلالها روحا محركا للحركة الثقافية بها بالمحاضرة والمناظرة وبتأليف جماعة ثقافية تعقد ندواتها بجمعية الشبان - كما دعته هذه الاقامة بعيدا عن بيته بالقاهرة الى انشاء بيته الخاص فتزوج عام ١٩٣١ .

وكان الكاتب المعروف سلامه موسى قد اعلن عن مجلة شهرية بالقاهرة يصدرها في اول نوفمبر ١٩٢٩ باسم « المجلة الجديدة » وكان نقولا يوسف قد تعرف به شخصيا عام ١٩٢٧ وقرأ مؤلفاته ومقالاته ووجد في الكثير منها ما يتفق مع مشربه في نزعة التجديد والدعوة الى الحضارة الحديثة والثورة على الجمود والرجعية والاستعمار ، مما وثق الصلة والصداقة بينهما طيلة العمر وما دعا البعض الى عده من تلاميذ سلامة موسى مع ما كان بين الكاتبين من بعض الفروق في الرأي فقد كان سلامه موسى يعالج قضاياه من ناحية مادية محضة - ولا يستهين نقولا يوسف بالجانب الروحي المكمل للمادي في الانسان بل المهيمن عليه .

وواظب نقولا يوسف على قراءة « المجلة الجديدة » منذ عددها الاول - ثم ارسل اليها مقاله الاول بعنوان : « ركود الادب المصري واسبابه » نشرت في اكتوبر ١٩٣٠ وتتالت بها ابحاثه ومقالاته بتوقيعه او بتوقيع رمزي مما اربى على ستين مقالة - وكانت وزارة اسماعيل صدقي عطلتها ستة وعشرين شهرا - (من سبتمبر ١٩٣١ - الى نوفمبر ١٩٣٣) لاصطدامها بحكومته وبالرجعية - ثم عادت الى الصدور بعد سقوط وزارته حتى اغلقتها وزارة اخرى نهائيا عام ١٩٤٣ - وامضت هذه السنوات في مصاعب مالية ومقاومات واضطهادات .. وكثيرا ما كنا نقرأ فيها لاقلام الشباب ، محمود تيمور ويحيى حقي وابراهيم ناجي ونجيب محفوظ ويعقوب فام ودريني خشبه وامير بقطر وحافظ محمود ورمسيس يونان وعزمي الدويري وغيرهم ..

وظل نقولا يوسف يراسل هذه المجلة من اسيوط فلما نقل منها بعد خمس سنوات (عام ١٩٣٤) والى القاهرة - زادت صلته بالمجلة وصاحبها وكتابها - كما عاد الى ندوات القاهرة واوساطها الثقافية ، وامضى بمدارسها سنوات اربع اخرى سبقت الحرب العالمية الثانية ، وكان العالم اجمع يصبو الى استقرار السلام ومنع الحرب ، بينما كان الاحتلال الانجليزي يثبت اقدامه في الاقليم المصري توقعا للحرب - والبلا ضائعة بين الاحتلال والاستغلال والاقطاع والجمود ، ويخيم عليها الثالوث المنكود : الفقر والجهل والمرض - وتتابعت مقالات نقولا يوسف في « المجلة الجديدة » عن الحرب والسلام ، العالم قريتنا الكبرى ، عصبة الامم ، المدينة العالمية والحكومة العالمية ، النزاع بين السود والبيض ، امبراطورية الانسان لا امبرطوريات الاستعمار ، اللغة العالمية ، العلم والحرب ، مستقبل الانسانية وغيرها من المقالات التي تهدف الى توطيد السلام عن طريق الاخاء البشري ووحدة الشعوب ونزع السلاح .. وبدأ يضع كتابا كبيرا بعنوان : « امبراطورية الانسان - والبحث عن السلام « نشر الكثير من فصوله وسافر الى جنيف في صيف ١٩٣٩ لدراسة عصبةالامم وما حولها من هيئات دولية تعنى بقضية السلام - وفي عودته مارا بروما توقفت البواخر وصرفالعملة وكاد يذهب ضحية البحث عن السلام !

وكان في الوقت نفسه مهتما بالقضايا الوطنية واصلاح الريف وتطور المجتمع وتجديد الادب ومساويء الاقطاع ، مما شمل - كما سلف - اكثر من ستين مقالة بالمجلة الجديدة (فيما بين ١٩٣٠ - ١٩٤٢) .

وفي سبتمبر ١٩٣٦ ظهر كتابه : « الحياة الجديدة » (١٦) متضمنا اكثر من ستين بحثا مما نشره حتى هذا العام في «السياسة الاسبوعية» والمجلة الجديدة (فيلاحظ انه لم يجمع مقالاته بعد هذا التاريخ في مجلد اخر اي في الثلاثين سنة الاخيرة) وقد قسم هذا الكتاب الى ثلاثة اقسام او كتب : « بحوث عالمية » و « شئون مصرية » و « دراسات أدبية وفنية » وقدم للكتاب بتمهيد موجز جاء فيه :

« ... وقد كتبت بحوث هذا الكتاب في فترات مختلفة لاخوتي الشبيبة المصرية الجديدة لنتبادل معا شيئا من الافكار والاراء التي تهم اهل هذا العصر ، ولست اعتقد مطلقا اني اتيت بعمل فني او بتحفة أدبية ، ولكني اعتقد انني اديت جزءا من الواجب المفروض اداؤه على كل كاتب .. ومجال النقد في هذا الكتاب فسيح ، وهو المجال الذي يصول فيه اعداء التجديد عندنا في كل ساعة . ومآخذ النقد هذه لا أجهلها ولكن يشفع لي فيها هذا الاخلاص وهذا الحب . وانا لم اسع الى ارضاء كل الناس او كل النقاد قبل ان اسعى الى ارضاء هذا الضمير الذي حثني على كتابتها ونشرها وكفاني ما احمل على رأسي من هموم الانسانية كأنها همومي الخاصة .. »

ثم يقول في هذه المقدمة : « .. وقد بدأت حياتي الادبية انظم الشعر وانثره واقنع بما يكتنفني من احلام ذهبية ونشرت في ذلك كتبا فيها سذاجة الحداثة ولكنيشببت واتسعت امامي دائرة الحياة فلم استطع الجلوس في وحدتي اترنم واحلم بينما اخوتي الناس يتخبطون في الفوضى خارج بيتي ، ويشكون المظالم والفاقة والبطالة . فكانت تصل الى اذني اصوات شكاياتهم وأوجاعهم وهي تتصاعد نحو السماء ، وتملأ نفسي بالاسى والمرارة ، وتزيدني حماسة في طلب الاصلاح والتجديد ، وتدفعني الى الخوض في هذا الزحام لعلى اقوم بخدمة او اضمد جرحا .. »

ولم ينقطع الكاتب بعد ظهور هذا الكتاب عن تأدية رسالته الى اليوم فنشر مئات المقالات والابحاث في شتى الصحف اليومية والدورية .. وكان جمع هذه الابحاث في حيز واحد - اعني كتاب « الحياة الجديدة » ما أتاح لعدد من النقاد ابداء الراي فيها مجتمعة وذلك في كثير من المقالات التي نشرت في الصحف ذلك العام وما يليه - وبدأ الكاتب المرحوم دريني خشبة بمقالة عنه في مجلة « الرسالة » (١٤ - ٩ - ١٩٣٦) جاء بها : « للاستاذ سلامة موسى في مصر مدرسة عرف تلاميذها بالدءوب والنشاط الذهني . وهم جميعا من الشباب المثقف المتشوف دائما لمستقبل حافل مليء بالاماني والامال والاحلام . وهم دائما يفخرون بانهم يمثلون ثقافة في مصر خاصة والشرق عامة . ومن هنا نزوعهم الى الثورة في تفكيرهم ، ومن هنا ايضا تبرمهم بثقافة وتحرشهم بزعماء مدارسها . ونحن لا يسعنا الا ان نمتدح تلاميذ هذه المدرسة بالرغم مما يتورط فيه بعضهم من التطاول .. بيد ان للاستاذ تلاميذ بارزين استطاعوا بعد كفاح عظيم وجهد متصل ان يفسحوا لاسمائهم اماكن ظاهرة في محيط التفكير المصري . ولعل من افضل هؤلاء التلاميذ الاستاذ المفكر المطلع صديقنا نقولا يوسف الذي اخذ نجمه يتألق في « السياسة الاسبوعية » ثم في عشرات من المجلات والصحف والاندية عرف فيها جميعا بسمو الغاية في تفكيره وحرارته الوطنية في حبه لمصر ومحاولته دائما الاندماج في الاوساط المختلفة ليترك فيها خمائر من ذهنه الخصب وثقافته الواسعة واطلاعه الشامل .. »

وكتب ناقد المقتطف (نوفمبر ١٩٣٦) : « هذا الكتاب كيف قلبته واي صفحة طالعت فيه تقع على اثار قلم يغذيه ذهن واسع الاطلاع ونفس وثابة الى الخير والاصلاح .. »

وكتب ابراهيم المصري في مجلته « الادب الحي » - (١ - ٤ - ١٩٣٧) :

« الاستاذ نقولا يوسف في طليعة كتابنا ذوي الاذهان المفتحة لتلقى كل جديد من الاراء الحديثة والافكار الحرة التي تشغل اليوم العالمين الاوروبي والامريكي . والواقع ان الوانا مختلفة من الثقافة تتجاذبه وفنونا منوعة من المعارف تحتل عقله . وفي وسعنا ان نقول ان كتابه معرض رائع من شتى الاراء والافكار المعبرة أتم تعبير عن روح العصر الذي نعيش فيه . فدراساته تنقلك في لحظة من الشرق الى الغرب ، ومن امريكا الى مصر ، ومن بلاد الاغارقة الى اقاصي الهند . وهكذا

يقدم لك صورا مختلفة الظلال والتقاسيم من عوالم جد متنافرة تمثل امامك في النهاية صورة مصغرة للعالم كوحدة متماسكة كبرى . وابدع ما في الكتاب سلسلة المقالات الخاصة بالادب المصري والدعوة الى تحريره واستقلاله واحكام الصلة بينه وبين البيئة التي تنبته والاتجاه به نحو المشاكل الاجتماعية ودراستها وتصويرها بحيث يستطيع الاديب ان يساهم معه في انها من بلاده ورقيها ... »

وكما ابعد اديبنا عن القاهرة وصحافتها عام ١٩٢٩ بسبب مقالاته الثورية في « السياسة الاسبوعية » . فقد ابعد عنها عام ١٩٣٨ بسببها في « المجلة الجديدة » واتهم بمعاونته لسلامه موسى عدو الاحتلال والسراى والحكومات الرجعية وداعية التجديد والاصلاح ـ ولم يعد الى القاهرة بعد ذلك الا زائرا .. ونقل اولا الى الزقازيق ثم الى المنصورة عام ١٩٤١ ـ وكانت هذه المدينة الاخيرة قريبة من مسقط رأسه ـ دمياط ـ وتشبهها في الكثير ، فأثارت فيه الذكريات وزار بلدته ورأى وفاء لها ان يكتب عنها ولها ما كشفه من تاريخها وشئونها . وكانت هناك صحيفة اسبوعية اقليمية اسمها جريدة « دمياط » تصدر منذ ١٩٣٦ فبدأ ينشر بها ما تجمع لديه من فصول ـ من عام ١٩٤٦ حتى توقفت عام ١٩٥٣ نحو خمسين مقالة في تاريخها واثارها ومشاهدات الرحالة الاجانب بها خلال العصور ـ ولما صدرت بدمياط عام ١٩٤٩ صحيفة اخرى اسبوعية باسم : « أخبار دمياط » اخذ ينشر بها ابحاثه عن تاريخها واعلامها وبحيرتها واثارها وغزوها .. ولم تزل هذه الصحيفة تصدر الى اليوم وتعد من الصحف الاقليمية المتقدمة ـ وقد نشر بها نقولا يوسف منذ صدورها (١٩٤٩) الى اليوم اكثر من مائتي مقالة وكانت هذه الابحاث التي نشرها في هاتين الصحيفتين الاقليمتين نواة لثلاثة مؤلفات كبيرة ظهر أولها عام ١٩٥٩ بعنوان : « تاريخ دمياط منذ اقدم العصور » في اكثر من خمسمائة صفحة .. وكتاب « اعلام دمياط قديما وحديثا » ـ وكتاب « بحيرة دمياط » ـ (بحيرة المنزلة) ـ ومدنها القديمة ـ وهذان الكتابان الاخيران معدان للطبع منذ سنوات ..

وفي الخمسينيات توزعت مقالاته وقصصه على عدد من الصحف العربية منها : جريدة « اليومية » التي اصدرها سلامه موسى عام ١٩٥٠ ، ومجلات : العالم العربي والطالبة والاهداف وجريدة القاهرة اليومية .. وفي الستينات نشر بمجلات : الاديب والرسالة والادب والقصة ، وجرائد : المساء ووطني والبصير .. وغيرها ..

القصـــــة

كتب نقولا يوسف القصة الطويلة والقصيرة منذ فجر الشباب . ولا شك ان هناك مؤثرات باكرة مثل حكايات العجائز في الطفولة ، وقراءة الروايات في الصبا ومشاهدات التمثيليات والسينما الصامتة ، وملاحظة الحوادث والوقائع اليومية التي تمثل كل ساعة على مسرح الحياة ـ كل هذه تحرك الاستعداد الفطري والموهبة الكامنة فتبدع الفن القصصي على مختلف الوانه واذا استثنينا قصة « الفردوس » التي نشرت له عام ١٩٢٢ لاختلافها عن الشكل القصصي المألوف واتجاهها نحو الشعر ، فقد رأينا له اقصوصة باكرة بعنوان « جنود الخلاص » (في السياسة الاسبوعية ١٧ ـ ٨ ـ ١٩٢٩) ـ ثم اخذ ينشر الاقاصيص والصور الهادفة الى تطوير المجتمع واصلاحه ـ وامامي الان من كتبه القصصية : رواية طويلة بعنوان « الهام » ١٩٣٧ ومن مجموعات اقاصيصه (دنيا الناس) ١٩٥٠ و (مواكب الناس) ١٩٥٢ و (هم وهن) ١٩٦٢ ثم مجموعة رابعة نشرت قصصها في المجلات ولم تطبع بعد .. اما (الهام) فقد كتبت في العشرينات ولم تظهر الا عام ١٩٣٧ واعيد طبعها في عامي ٤٧ و ١٩٦٥ دون تغيير فيها . ومع انها تجمع بين الاسلوبين الواقعي والرومانسي فانه يغلب عليها الاسلوب الشعري وبخاصة في صور الطبيعة لانها مكتوبة في فترة من العمر وفي عصر كانت الرومانسية تسود القصص .. وابطالها كما صورهم المؤلف من الشباب المكافحين في الحياة ـ كل في نطاق طبيعته : (فريد) شاب مثقف فقير يكافح بقلمه ومبادئه لتجديد المجتمع وتقويم عيوبه ـ وصديقه (سمير) شاب غني مستهتر يرى الحياة ميدانا للتمتع والعبث .. الاول يمثل الجانب الروحاني والثاني الجانب المادي السلبي ـ وبينهما صراع دائم .. وكذلك بطلتا القصة احداهما تمثله الفتاة الحالمة المنطوية والثانية (الهام) الفتاة المتحررة المنطلقة والفنانة الجامحة .

وتناول عدد من النقاد رواية (الهام) بالتحليل والنقد ومن ذلك ما كتبه المرحوم صديق شيبوب في « البصير » (٩ ـ ١ ـ ١٩٤٨) عقب ظهور طبعتها الثانية : « حرصت على الاشارة الى سن المؤلف وتاريخ التأليف لان القصة تحمل طابع الاثنين معا ـ انها تحمل اكثر من طابع مما تتسم به كتب الشباب عادة . منها : تلك الشاعرية المنبثة في صفحاتها ، وترديد وصف الطبيعة الى حد الاسراف ـ وصحيح ان وصف مناظر الطبيعة ضروري في القصة لانها اطار لكثير من الحوادث ولان العواطف تتبدل وتتطور باختلاف مناظر الطبيعة واجوائها وساعاتها كما يقول بعض النقاد الباحثين ـ وقد استفاد كثير من القصصين من هذه الظاهرة النفسية واذا لم يستفد منها الاستاذ نقولا يوسف فقد استطاع ان يستغل وصف مناظر الطبيعة الى ابعد حد وان يتوسل بها الى تحليل الكثير من عناصر القصة .. ولعلي لا اغالي اذا قلت ان المؤلف قد جعل من الطبيعة شخصا من اشخاص القصة وعنصرا اصيلا من عناصرها وان تناول الطبيعة على هذه الطريقة دليل على نفس شاعرة واحساس دقيق وكلاهما متوافران في مواهب نقولا يوسف .. »

ويقول اسماعيل ادهم عام ١٩٤٥ :

« .. ولقد وجدت القصة التحليليةالواقعية في مصر اهتماما كبيرا ـ فقد وجه لها ابراهيم المصري ونقولا يوسف شيئا من جهودهما ـ فكتب الاول مجموعة عنوانها الادب الحديث عام ١٩٣٢ كما ان نقولا يوسف كتب مجموعة من القصص خيرها قصة (الهام) التي نشرها عام ١٩٣٧ وهي قصة تحليلية واقعية نجح نقولا يوسف في تقديم مجموعة من التحليلات النفسية العميقة مستنزلة من ادراك سليم دقيق لنظريات علم النفس .. » (١٧) .

---

(١) قصة (الهام) لنقولا يوسف ـ ١٩٣٧ ـ ص ٦ الفصل الاول بدمياط (٢) (الفردوس) ١٩٢٢ ص ٣١ ـ ٣٤ ذكريات الطفولة ـ (٣) ديوان عبد الرحمن شكري ١٩٦٠ المقدمة ص ٧ ـ (٤) اليابان ـ ١٩٢٠ مقدمة المترجم ـ (٥) بطل تراوده ـ المقدمة ص ٤ ـ (٦) من الاعماق لاوسكار وايلد ـ الناشر مكتبة العرب ١٩٢٢ ـ (٧) وصف الحفل بجريدة الاهرام ١٥ـ٤ـ١٩٢٣ ـ (٨) كتاب « توت عنخ آمون » تعريب ن.ي ـ نشرته مكتبة زيدان بالقاهرة ١٩٢٦ ـ واضافت اليه بضع صفحات لم يترجمها المعرب ـ (٩) كان من خريجي مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة : عبد الرحمن شكري وعلي مصطفى مشرفه وابراهيم المازني واحمد رامي وفريد ابو حديد واحمد زكي وشفيق غربال ومحمد السباعي وغيرهم .. (١٠) انظر مقالة عن جالارزا لنقولا يوسف بمجلة الاديب يناير ١٩٦٥ ـ (١١) من احاديث خاصة مع الكاتب ـ (١٢) رسالتا جالارزا والمنفلوطي منشورتان مع رسائل اخرى للكاتب بمجلة « الادب » يونيه ١٩٦٢ ـ (١٣) نسمات وزوابع ـ المطبعة العصرية بالقاهرة ١٩٢٧ ـ ٥٤ قصيدة ـ ٢٠٣ صفحة (١٤) مجلة « أدبي » لزكي ابو شادي ـ اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٣٦ ص ٥٣٤ في نقده لديوان عتمان حلمي ـ (١٥) انظر جريدة السياسة ـ كتاب (الصحافة المصرية في مئة عام) لعبداللطيف حمزه ص ١٠٤ ـ ١١٢ ـ (١٦) الحياة الجديدة لنقولا يوسف ـ مطبعة المجلة الجديدة ١٩٣٦ لصاحبها سلامه موسى ـ (١٧) كتاب « توفيق الحكيم » لاسماعيل ادهم وابراهيم ناجي ـ ١٩٤٥ ـ ص ٤٥ ـ (١٨) من رسائل شكري ـ مجلة «الادب» ـ بالقاهرة ـ ١٩٦٢ وتاريخ الرسالة ٣ ـ ١٠ ـ ١٩٥٢ .

ورأى ابراهيم المصري بمجلة « الهلال » (مارس ١٩٣٨) ان :
« قصة الهام تمثل لنا الصراع الابدي بين الروح الخيالية الرومانتيكية المتمكنة من نفوس معظم الشباب وبين الروح الدنيوية العملية المستمدة من اغراء المادة والشوق الى التمتع بكل ما هو مادي في الحياة فالحب الشعري الخيالي النقي والنزعات التأملية التجريدية والرغبة في الفرار من هذا العالم على أجنحة التصور والوهم ، والحلم بدنيا اسمى من هذه الدنيا واروع صفاء واكمل خلقا وعدلا ، جميع هذه الاحساسات التي تطوف بنا وتحتل اذهاننا في طور الشباب الاول ، نجدها في رواية الهام ممثلة خير تمثيل ومصورة بريشة رسام ماهر . والحق ان نقولا يوسف ابدع ايما ابداع في الجزء الوصفي من قصته فهناك مناظر طبيعية مصرية اجاد تصويرها اجادة فائقة وتحرى الدقة المتناهية في ابراز معالمها فاشعرنا بما فيها من جمال هادىء وسنان وليس شك ان الابداع في وصف الطبيعة المصرية يزيد القاريء المصري حبا لبلاده ويضاعف تعلقه بها وحرصه عليها واندماجه فيها واخلاصه لها ـ وهذه الظاهرة الوجدانية شائعة في كل سطر من سطور القصة وهي السر في قيمتها الادبية .. »

اما مجموعاته القصصية : دنيا الناس ومواكب الناس وهم هن ـ فتكاد تشترك جميعا في خصائصها . فبعضها صور من نماذج بشرية قد تكون حقيقية مرت بالكاتب وقد يتدخل الخيال في عقدتها فلا تخرج صورة فوتوغرافية او حادث عابر ـ وهي صور نفسية تحليلية واكثرها من عامة الشعب وبسطاء الناس ، وتدور حول تقويم ضعف او اصلاح نقص في اسلوب واقعي وهدف مرموز .

ومما لاحظه محمود تيمور في تقديمه لمجموعة (دنيا الناس) ١٩٥٠ ان هذا الكتاب : « هو حقا دنيا الناس بما حوى من صور تمثل شكولا من تصاريف الناس فيشئون العيش ومدارج الحياة .. » ويقول : « لا نرى صاحبنا في كتابه هذا يتابع مناجياته العاطفية الرقيقية التي الفناها من قبل في شعره المنثور ـ فقد نزل اليوم الى الشارع وخالط خلق الله وعاد الينا في (دنيا الناس) يسجل استجابته النفسية لما رأى وما سمع فتجلت مهارته في التقاط الصور وانتزاع المشاهد والتفطن الى المواطن الاجتماعية التي تلين للغمز واللمز ، واذا هو يزف الينا تلك الاقاصيص من صميم الحياة مختلفة الوانها يغلب عليها طابع الطرائف .. » ويرى صديق شيبوب في (دنيا الناس) (البصير ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٥٠) ان المؤلف « .. يتبسط في الوصف لانه يعتمد في ما يكتب على الواقعية ـ فهو واقعي في وصف المدن والاحياء والشوارع ومناظر الطبيعة والحياة العامة والهدؤ الذي يرين على بعض مدن الريف والصخب الذي يستولي على غيرها . وهو كذلك واقعي في اختيار الاسماء ـ اسماء الاشخاص والمخازن والمقاهي ... وفي وصف الحياة اليومية لافراد الاسرة والاحاديث التي يتداولونها .. واسباب الاحزان . والافراح .. ولعل كلمة واقعية لا تتفق كثيرا في معناها الفني مع هذا الذي ذكرناه واذا قلنا ان هذه الاشياء توافق الطبيعة والواقع كان التعبير اقرب الى الحقيقة من مدلول كلمة واقعية (رياليسم) في الادب الاوربي ـ وهي انما تطلق على طريقة الكاتب في وصف الاخلاق والغرائز ـ وكلما كانت هذه الغرائز وتلك الاخلاق لمحة في مطابقاتها لنزعات النفس الانسانية المنحطة بعيدة عن السمو الى المثل العليا .. كانت اقرب الى الواقعية . ونقولا يوسف من هذه الناحية واقعي ولكن واقعيته يشوبها كثير من العطف على ابطالقصصه لانكتشعر في بعض الاحيان وانت تطالع الاقصوصة ان صاحبها يعطف على بطلها .. ويشوب واقعيته ايضا شيء من الشاعرية تجعله يسمو فوق الواقعية الى بعض المثل العليا ـ ولعله يأبى ان يتمرغ الناس جميعهم في حماة الحب والبغض والانتقام ، وان يلقوا من ويلات هذا العالم وشروره ما لا قبل له به .. وهكذا نجد الاستاذ نقولا يوسف يجلو من (دنيا الناس) صورا طريفة فيرسمها باسلوب يختلف بين الرقة والبلاغة ، وبين الدقة والسماحة ـ في عبارة محكمة وفيض وسلاسة . وهو يرسمها كذلك في الوان مختلفة واوضاع متغايرة واوساط تكاد تكون متفقة لانه عني اكثر ما عني في هذه المجموعة باولئك الناس من اصحاب الطبقة بين البورجوازية والشعب من أمثال صغار الموظفين وهم اكثر الطبقات عددا واجدرهم بالعناية والحدب .. وكل صورة جلاها نموذج بشري حري بالدرس والتحليل .. »

وعندما قرأ عبدالرحمن شكري مجموعته (مواكب الناس) ١٩٥٢ ارسل اليه يقول (١٨) :
« ... ولكنيرأيت ان اكتب اليك لاشكرك على هذه القصص التي تدل على العبقرية وحسن الاختيار والخبرة بالنفوس البشرية . وبودي ان اقرأ لك مجموعات قصص اخرى قبل ان أموت .. ولو ان هذه المجموعة هي اشبه بالحياة جمعت بين اناس من كل لون وصنف فارجوك ان تقصر ادبك على كتابة القصص القصيرة فقد برزت فيها وستبرز ان شاء الله ... »

وفي المقالة التحليلية البارعة التي طالعها قراء « الاديب » (نوفمبر ١٩٦٢) عن مجموعة (هم وهن) يقول الدكتور محمد رجب البيومي :
« .. ان هذه المجموعة واخواتها تؤكد ان الاستاذ يكتب القصة نتيجة مرارة نفسية تتعقد عواملها في نفسه لنشاز يلحظه فيرصد مشاعره رصدا متناسقا يعنى بالتحليل والتشريح وتغمره روح انسانية متسامحة تغضي عن الهنات ، وتفسح لها مجال العذر والتبرير لما ركب في الغرائز من عناصر الجموح والسيطرة وانت حينئذ لا تتطلب منه مجرد تشويق كاذب او اثارة مفتعلة او مفاجأة مذهلة كما يعمد الى ذلك من يتملقون القراء باحقر اساليب الاغواء ، بل انه ليتهكم بهؤلاء في احدى قصصه .. وقد اعان الاستاذ نقولا على هذا التحليل الكاشف رصيد ضخم من الملاحظة الدقيقة فهو يعير اللفتة العابرة اهتمامه كحدث هائل يترك دويه المجلجل ، ويرى في الكلمة التافهة والاشارة المقتضبة سيولا من الاشعاعات الكاشفة تتجمع وتتجمع لتجلو الظلام عن وجوه الحقائق فتسفر في افتضاح . أجل ، الحادث الصغير يراه كل انسان فلا يعبأ به بحكم الالفة والتكرار ولكن الاستاذ نقولا يوسف يجعله نواة جيدة لقصة رائعة من ابدع القصص الفني المعاصر .. »

وكتب اليه عام ١٩٦٤ رائد الفن التشكيلي محمود سعيد يقول عن مجموعته (هم وهن) :
« كانت قراءتها من اجمل الساعات التي خففت من وحدتي اثناء مرضي ، ونقلتني بسحرها من جو حجرتي الممل الى تلك الاجواء المثيرة بشعرها الاخاذ وانسانيتها العميقة ... »

واخيرا عندما استقال نقولا يوسف من الوظائف ـ في اول يونيه ١٩٦٠ للتفرغ للبحث والدرس بعد ان اشتغل بمهنة التعليم قرابة خمس وثلاثين سنة تحتاج الى حديث لا يتسع له المقام ـ شغل معظم وقته في المطالعات ، ونشر منذ ذلك العام اكثر من سبعين مقالة واقصوصة في الصحف العربية ومنها مقالاته بمجلة « الاديب » . كما اشترك في المؤتمر الافريقي الاسيوي بالقاهرة ١٩٦٢ وفي مهرجان الشعر الرابع والخامس بالاسكندرية .. وقضى ايضا عامين او ثلاثة في انجاز كتاب كبير عهد اليه بوضعه عن « اعلام الاسكندرية قديما وحديثا » ويشمل تراجم لاكثر من مئة علم من الاسكندر الاكبر الى يومنا هذا من اعلام الوطنية والعلوم والفنون والاداب ـ وهذا الكتاب في سبيله الى المطبعة وكذلك وضع كتابا عن الادباء الزنوج واخذ في اتمام كتابه القديم الذي نشر عددا من فصوله منذ سنوات عن « البحث عن السلام » ثم مجموعته القصصية الرابعة المعدة للطبع .. ومخطوطات اخرى ..

واما مقالاته وابحاثه المنشورة في الصحف منذ عام ١٩٣٦ ـ أي بعد ظهور كتابه « الحياة الجديدة » وهي في بضع مئات ـ فلم تجمع بعد في كتب ..

وعلى شاطىء الاسكندرية بين بحرها وذكرياتها وانبعاثها الجديد ، يعيش اليوم ـ ومنذ عدة سنوات ـ الكاتب المجاهد نقولا يوسف مكرسا حياته وقلمه في خدمة وطنه العربي والشبيبة العربية والانسانية جميعا

عبدالعزيز جادو — **الاسكندرية**

طلاقة الحياة خلف المظاهر المادية

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

لاشك ان دقة الحس ، ووفرة الخيال عند بعض الناس ، تهيب بهم ان يستنطقوا ما يكمن خلف هذه المظاهر المادية ، التي تقع انظارهم عليها ، فلا يمرون عنها عابرين ، بـل يلذ لهم بما يغدقه عليهم خيالهم ، ان يستنبطوا ما يداخل هذه المحسوسات المادية ، من اسرار ، ويسبغوا عليها الحياة ، وفي اضفاء الحيوية ، على بعض هذه المظاهر ، ما يقوي من الصلة الروحية فيما بيننا وبينها ، فتتسع آفاق الحياة وتعمق ، وكم في الحياة من اسرار ، تبدو واضحة ، على ضوء الاحساس الرهيف، والخيال الخلاق، الذي لا يفتأ ان يجمل الحياة امام الانسان ، بما يقع عليه، من كنوز سحرية ، اذا ضاقَ ، بما ران عليه من رتابة السأم ، والضجر ، واقتحم هذه الحياة المقلقة ، منسابا الى حقائقه الاولى ..

وقف صديقي امام شجرة وردة في احد البساتين يحدق صامتا في زهرة حمراء يخالها الرائي ، لهبا متحركا متجمدا .. وقف يتأمل اناقة حسنها ، وجمال منظرها ، مغرقا ، متبتلا في تأمل سر تكوينهـا ، يشتم أريجها ، وينفثه ، في رئتيه ، مغتبطا مسرورا ، مؤتنسا بمتاعه ولذته ، وانا أرمقه ، وهو في كمال غبطته ، وتفاعله مـع الحياة ، وسرعان أن قدم صديق لنـا ، وشاهده في غمرة سروره ، فلم يعجبه هذا الفرح الطفولي ، لان سطحيـة نظرته للحياة ، لم تدعه ان يحفل بأمثال هذه الفرحة ، وان لا يطوف في اجتلاء اسرار الحياة العميقة ، بل وقفت به عند حدها المادي ، ولم يكن في طلاقة الخيال ما يمنحه ان يمد جسرا ، ينطلق عليه ، ليصل الى الحياة الحقيقية التي تتحرك طليقة خلف هذه الاسرار المادية : اقتطف الورده ، وانتزعها من غصنها ، ومن ثم شمها ، واستغرق اريجها ، ثم دعكها بيديه ، وبددها قطعا متناثرة ، ورماها علـى الارض ، وضغط على نثارها ، بكعب حذائـه .. كنت اتأمله ، وعيناه تلمعان بالسرور ملتقيا مع دفقات شواظ السخط ، تنفثه عينا صديقنا المتأمل ، ولم يلبث ان نشب بينهما عراك كلامي ، يخفي تحت نبراته الهادئة حـدة وغيظا .. قال الاول .. لم اجهدت نفسك ، في اقتطـاع زهرةالورد ، والقيت بها على هذه الصورة تندب مصيرها؟

ــ لقد استغرقت أريجها ويكفي ذلك .

ــ اليس للزهرة حياة ، وانفاس كانفاسنا ؟ ولم لـم تدعها حيث هي ، لعل غيرنـا يأنس بحسن منظرهـا ، ويستاف اريجها ؟ اما كان حريا بك ، ان تغنم بديع الحسن من بعيد ، وتتركه يناجي الحياة ، كما تناجيها انت !

ــ حقا انك لمغرور ! وهل للزهور روح كأرواحنا ، حتى تتركها تناجي الحياة ؟ ان استغراقك في الاوهام هو الذي اثار فيك هذا الاهتمام !

ــ انا لست مغرقا في الاوهام ، وما اقوله هو حقائق .. كنت اتأمل الزهرة ، واشم عبيرها وابكي في لحظة واحدة ، ابكي .. لانها انتصبت في مشرق الصباح ، على غصنها ، تغني للحياة في شوق وأمن ، ولم يكـن يـدور بخلدها ، ان الموت يتربص بها ، ما بين لحظة واخرى ، اما ذبولا عند المساء ، حيث تلفظ انفاسها الاخيرة بعـد ان مثلث دورها في الحياة ، تطلق عاطر النسيم الجميـل المحبب ، فيذيع السرور والفرح ، والنشاط ، في قلب الانسان دون ان تحمله منة .. او انتزاعا من يد مثلك ، يقضي على انفاسها ، وهي في ضحوة عمرها ، بلا سبب سوى ما يتأصل في اعماقك من قسوة وصلابة ..

ــ القسوة في اعماقي ؟ نعم القسوة في اعماقك ، ولو لم تكن قاسيا ، لتركتها تذيع العطر وتنفح بالجمال ، واثارة احاسيس الخير في الانسان ، بيد انك قضيت على الخير ، وفي بعض النباتات الصغيرة ، ما ينفـح الناس بالخير اكثر مما ينفحه الناس ..

لقد هدأت سورة هـذا العراك الكلامي بينهمـا واسترسلنا ، في سيرنا ، وانا اقارن ما بين حرارة القلب الحساس ، وبرودة القلب القاسي .. واخذت تنهال علي الصور والتأملات .. لقد تأمل الشاعر ابن الرومي ــ فـي زهرة الشقيق الحمراء ، تنطبق على قرص أسمر ، فأنس بهذا المنظر واسعفه خياله ، ان يعطينا صورة جميلـة ، من صور الحياة ، تصور الزهرة لهبا يلتف على قرص من الفحم لم تشعله ، قـال :

اعجـب بهـا شعلا على فحـم   لـم تشتعـل فـي ذلـك الفحـم

ان قوة فنه ، وصدق نظرته للحياة ، ادى به الى ان يتصور الحمرة لهبا ، والسواد فحما ، فجاد خياله بهـذه الصورة الرائعة ، واذا قارنا هذه الصورة ، مـع صورة اخرى ، استمدها شاعر آخر لا يهمه الا الطلاء الخارجي ، والزخرفة والتزويق ، استمدها من وصف زهرة الشقيق ، لبدت الصورة الثانية باهتة ، لا تحفل بالفن والحياة ، وانما تحفل بالوهم يقول :

انظر اليها كتيبـة من عسجـد   شقائـق النعمـان فيهـا جراح

ان اغراقه في الوهم ، صور له الخضرة في لباس الكتيبة ، وشتان ما بين الخيال ، والوهم ، فالخيال يكبر من الحقيقة ، بما يعطي الصورة من لون اخاذ ، والوهم خداع وتزويق يخالف جوهر الحياة ..

ولقد يمر كثير من الناس ، على الخرائب والاثار ، فلا تثير في نفوسهم حسا ، فكانما يمرون على احجار ، وصور صماء ، لا تنبض بالحياة ، ولا تحفل بعظمة الانسان،

حطام قيثارة

.. الى الفنان علي خالد هجرس ..

★

لما ادكرت مع السمار نجواك ... جهشت من حسراتي عند مرآك

قيثارتي اين اوتار تعلمني ... ما كنت اجهل من اسرار دنياك

كنا نجيين نحيا في مطارحة ... وملء حنجرتينا غصة الشاكي

اشكو اليك مصابي من اسى زمني ... ليلا وافهم بالانغام شكواك

عشنا معا في الضحى والليل يجمعنا ... نجواك حيث الندامى من اسارك

فكيف حطمك المقدار في عجل ... وصرت كومة الواح واسلاك

أأنت هذي البقايا يا مبعثرة ... كزهرة بددت ما بين اشواك

لما تفرق احبابي وزايلني ... انسي وعادت لي الاحزان لولاك

تهوين من فوق تل كان يجمعنا ... قبلا وكان مع السمار مأواك

وما تبقى من الدنيا يفرحني ... شيء . ويبعد عني الهم الاك

ياما لعبت بارواح وافئدة ... في موكب ببساط الانس ضحاك

طورا تسيلين (بياتا) واونة ... (رصدا) ومن بعده لحن (الصبا)الباكي

قيثارتي لو نسيت الناس كلهم ... والراح والمنتدى ما كنت انساك

هذا الحطام حطامي انه قطع ... مني . وليس حطاما من بقاياك

البحرين ... احمد محمد الخليفة

لانهم لا يدركون الا الواقع المادي ، ولا تنفذ نفوسهم ، الى سر الحياة العقلية والنفسية ، وقدرتها التي أخرجت من المادة ، صورا حية مادية ، تنبض بالعظمة والجمال والقوة بروح الانسان الجبارة اذ حسبهم من الحياة ، الاكل المرىء ، والعيش الرغيد ، يمرون عن قافلة الحياة ، عميا لا يدركون اسرارها ، يحسون الحياة بأمعائهم ومعدهم ، اذ غدا احساسهم معدة ثعلبها ضابع .

لقد زار الشاعر شفيق المعلوف ــ خرائب بعلبك ، فالهمته آثارها رائعة ، قل ان تجد لها مثيلا في الادب العربي ، لان خياله الوثاب ، وحسه المرهف ، جادا عليه بصور استمدها من اعمدتها ، وهياكلها ورشاقة تماثيلها ، مستلهما التاريخ ، وما كانت علية قوة الانسان ، في غابر الازمان يقول :

ربضت على صدر الزمان واوثقت ... كلتا يديه .. فحار كيف ينالها

رضم لو انك .. سرت في جنباتها ... لخشيت ان تهوى عليك ظلالها

في صخرها تحيا النسور كانها ... منحوتة من صمه آجالها

وتشبه اطلالة المعلوف ، اطلالة الشاعر ابو ريشة على صرح روماني قديم ، شاهده في صحراء الشام ، رابضا على صدرها ، فأثار في نفسه احساسات مزعجة رهيبة ، تنبض بالجمال قال :

قفي قدمي ان هذا المكا ... ن ، يغيب به المرء عن حسه

لقد تعبت منه كف الدمار ... وباتت تخاف اذى لمسه

هنا ينفض الوهم أشباحه ... وينتحر الموت من ياسه !!

ان اعاجيب الكون، وكنوزه السحرية، تكمن خلف هذه هذه الاستار المادية ، لا يقتطف جناها ، وحلو ثمارها .. الا من امدته الحياة ، بفيض زاخر من الاحساس الرهيف والذكاء العجيب .

عمان ... مصطفى درويش الدباغ



يوسف عبد المسيح ثروة

هنريك ابسن والرمز والدلالة

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

يمتاز هنريك ابسن ، الكاتب المسرحي النرويجي الفذ ، باصالة مسرحية خاصة جعلته في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين ، محورا لجدل مترامي الاطراف عميق التأثير ، سهل التناول ، متنوع الجوانب ، اخذ عليه بعض النقاد مآخذ كثيرة فعدوا ادبه باسره ادبا فجا وقحا ، صارخ الصراحة ، ولا سيما في انكلترا ، وعده آخرون ، وعلى رأسهم برنارد شو ، فتحا جديدا في عالم المسرح ، من حيث صراحته وصرامته ، وقوة انحداره في مهاوي شلالات المجتمع والنفس البشرية علـى حـد سواء ، وعرضه الصور والمشاهد النفسية والاجتماعية والخلقية عرضا امينا صادقا ، فيه جرس الاخلاص الرنان ، والقدرة القادرة علـى الغوص الى الاعماق وفضح ما فيها من نتن وسموم ، ومخاز وسفالـة وانحطاط بشجاعة الرائد وعزيمة القائد المحنك ، وحنان الاب العطوف وحماسة المصلح الحريص على الصالح العام . وكل ذلك باسلوب بسيط بساطة السهل الممتنع ، وحوار يتواءم ويتلاءم منبعثا من اطراف الحبكة القصصية ، ليتلاحم في العقدة تلاحما طبيعيا تدريجيا هادئا ، يمشـي ـ على وفق السياق ـ على هون ويسر ، من غير جلبـة او هـرج ، ويتصاعد الى الذروة تصاعدا سليما لا هرجلة فيه ولا تعثر ولا تهور ، وهو ـ في ذلك كله ـ يضع الحياة على المسرح وضعا لا تكلف فيـه ولا تصنع ، او يجعل المسرح نفسه صورة حية من صور الحياة كما هي .

اما التوتر ، الذي هو محاولة وجدانية لحل التناقض في الوجود المسرحي ، من حيث كونه وجودا حيا ، فهو كذلك توتر طبيعي يشعـرك قارئا ومشاهدا بواقع الحياة ، لا كما هي في مظهرها الخداع ، مظهـر التقاليد والاعراف والقيم ، بل واقع الحياة في مساربهـا الخفيـة وحقيقتها المبطنة بالف ستار وستار من الزيف والنفاق والرياء والدجل والغش والاحتيال ..

ومن ثم كانت هذه التعرية عنيفة عنف المبضع وهو يمزق الاشلاء المتهرئة . وصارمة صرامة الصراحـة الجارفة لكـل العوائق المفتعلة المختلقة .

وهذا العرض الامين لمشكلات المجتمعة المتورمة الخبيثة يجد لـه اصداء واضحة المعالم في المسرحيات الاجتماعية لا سيما في (بيت الدمية) و (الاشباح) و (عدو الشعب) و (اعمدة المجتمع) .

مسرحية بيت الدمية

في هذه المسرحية فضح صريح كل الصراحة للصلات النفاقيـة التي تجمع بين الزوج والزوجة من حيث كونهما كيانا منسجما ووحدة اجتماعية عضوية .. وهما ـ في الواقع ـ كيانان منفصلان جمعت بينهما مصلحة آنية وقتية ، انهارت انهيارا فاجعا بتعرض هذه المصلحة الـى عوامل خارجية وداخلية كانت سبب التأزم والتشتت والضياع واذا بكل التقاليد تهتز من اسسها اهتزازا عنيفا في وجه عاصفة من الانفتاح النفسي والانكشاف الذاتي ، والاعتراف بواقع الحال . واذا بالمرأة ، الانسانة المليئة بالروح الانسانية العميقة السمحة المكتفية بوجودهـا التقليدي الزائف ، تنفر من هذا الوجود ، بل تثور عليه ثورة عارمة تهدم كيان بيتها على راسها وتبتر صلتها بزوجها وبذريتها ، لانها شعرت ولاول مرة انها كانت تعيش عيشة اقل ما يقال فيها انا عيشة الدمـى لا عيشة الانسان الحي المسئول عن وجوده ، المستقل بشخصيتـه ، المدرك لقيمته الواعي لانسانيته ..

ومن هنا ، فان هذه المسرحية التي احدثت اعصارا في طول اوروبا وعرضها فزلزلت قواعد المجتمع حينئذ ، لا بد ان تحملنا على تفهم مشكلة الزواج لا بوصفها وصفة جاهزة لعلل المجتمع ، بل بصفتها هي نفسها مشكلة بحاجة ماسة الى حل جذري ، اذا اريد للعائلة ان تكون نواة حية لمجتمع حي سليم من اوضار التفسخ والانقسام والانهيار ..

وابسن ـ في عرضه لهذه المشكلة ـ لم يطمح الى وضع حلول لها ، ولم يحاول ان يضع مثل هذه الحلول ، لان عمله المسرحي الرائد ، يتنافى والعمل الاجتماعي بمفهومه الاصلاحي . ذلك ان المصلح ـ فـي دخيلة نفس المسرحي ـ كان يختبيء بل يتراجع خلف العمل الدرامـي الذي هو فن وابداع وخلق وتجاوز للواقع انطلاقا من الواقع ، ولذا نجد العرض الامين يلتقط خلفيته من الواقع الاجتماعي ليقدمه الينا في صورة معبرة صادقة شاملة لدقائق الحياة ، من غير رتوش ، ومن غير انفعال ذاتي غير مناسب ، غير وارد . وهو ـ في ذلك ـ يستخدم نثرا تلقائيا مباشرا بسيطا ، يمتاز بالشفافية والاصالة والادراك العميق . كما يمتاز بالقوة الدافقة والعنف والشدة . كل ذلك على وفق مستلزمات الحياة ودوافعها واسبابها ومسيرتها ، انطلاقا من الجو الطبيعي الذي ينبعث من الحياة . وشفيعه ـ في ذلك ـ امانة في الاداء ، وحـرارة في الحوار ، وصدق في العرض ، ودقة في التناول .

مسرحية الاشباح

اما في ((الاشباح)) فهو يتعرض الى مرض الزهري الوبيل تعرضا خاليا من كل رأفة وشفقة ، خاليا من كل نفاق او رياء ، فالابن المريض ورث مرضه من ابيه ، لان اباه جعل من بيته مباءة فسق واباحيـة وفجور ، لا دار قدسية وهيكل عبادة ، وصرح زيجة طاهرة . وهكذا فالآباء ياكلون الحصرم والابناء يضرسون ، كما جاء في القول المأثور . وكان هذه هي سنة الحياة ، في بلد ضرب عرض الحائط بكل القيم والمقدسات ، ثم راح يدعي متشدقا انه موطن الفضيلة وملجأ الحرمات والمقدسات . على حين ان العائلة التي تمثل شخوصها ((الاشباح)) لا تعدو ان تكون المثل الاعلى لمثل هذا البلد ، ومثل هذا المجتمع ، المثل الذي ينز تفسخا وتخبطا وانحلالا . ولكن القيم المتعارف عليها المعترف بها تابى الا ان تصر على ان هذا هو المجتمع الانموذجي ، المجتمع الفاضل السليم من كل الادواء والموبقات النزيه الذي لا ترقى اليه الريـب او الشبهات .

ومن ثم نجد النقيضين متلازمين ، الحياة واقعا والحياة اشباحا ،

الواقع المتفسخ المنحل ، والواقع الاجتماعي الذي يغطي الواقع المتفسخ بكل الاردية والبراقع ، لكي يبدو في مظهر غير مخبره الحقيقي ، ولكي يستمر الوجود الاجتماعي على ما هو عليه من غير رجات او صدمات او اصطدامات .. تجنبا للتغير وتحسبا للطواريء والازمات ..

الا ان ابسن ـ بحاسته الدرامية ـ ادرك اسس الشرور وجذورها وثمارها فلم ير بدا من ان ينحدر اليها ليمزق الجف عنها ويعرضها لاشعة الشمس المطهرة وهكذا كان له شرف الزيادة في قلقلة المجتمع الاوربي الاسطوري التقاليد ، المجتمع الذي سرعان ما انهارت قوائمه ، لانها كانت قوائم من فخار متشقق وكلس متصدع ونثار من انقاض متماسكة بغراء متفتت ..

مسرحيتا عدو الشعب واعمدة المجتمع

اما في « عدو الشعب » و « اعمدة المجتمع » فيتناول ابسن الزيف الاجتماعي تناولا فيه مسحة كئيبة ، وسخرية مبطنة بهذه المسحة .. فالاصلاح والمصلحون ـ في المسرحية الاولى كلام لطيف يقال ويسمع اليه وينشر على اعمدة الصحف ، ويكون له اتباع واعوان من سواد الناس وارباب السلطة الرابعة ، صاحبة الجلالة الصحافة . كل ذلك حق واضح ، معترف به ، منشور ، مشهور . لكن الامر ، متى تعدى الكلام وسار الى اول مرحلة من التطبيق ، انقلبت الدنيا ، عاليها سافلها ، واذا بالاتباع والاعوان يتنصلون ويتهافتون وينخذلون ويتوارون عن الانظار الواحد تلو الاخر ، لان التلويح بالاصلاح شيء وتطبيقه شيء آخر تماما ، وشتان بين تلويح وتطبيق . واذا بالطبيب المخلص لا يجد غير نفسه اهلا للاصلاح ، فضلا عن شخص واحد صديق يلازمه ، لانه لا يجد معنى للصداقة غير العون في وقت الشدة والمحنة .

مسرحية البطة البرية

والظاهرة البارزة في معظم كتابات ابسن اذا لم تكن في كلها استخدام الرموز الموحية بالدلالات البعيدة الخفية ، ومن ذلك استخدام السفن في مسرحية « اعمدة المجتمع » والرقص والموسيقى في مسرحية « بيت الدمية » والبطة البرية في مسرحية « البطة البرية » . والرمز الاخير حافل بالدلالات والمعاني والاشارات الحية المرتعشة . وهو رمز للطهارة والغربة والانسلاخ ، فالبطة البرية المهيضة الجناح التي تغوص الى اعماق البحر ، بحثا عن الموت والهدوء والسكون ، لا تعدم مطاردا يطاردها الى الاعماق وليس ذلك المطارد غير كلب الصياد الماهر هيكدال، الذي يتعقبها الى الاعماق ويأتي بها ذليلة اسيرة الى بيت الصياد ، لتحيا من جديد حياة ملؤها الوحدة والوحشة والانعزال ..

ومن هو هيكدال هذا ؟ انه ضابط متقاعد ، احتال عليه التاجر ويرلي ، فادخله السجن بدلا منه ، لمخالفة كان المسئول عنها ويرلي نفسه ، ولكنه تمكن بدهائه من توجيه التهمة الى شريكه الذي كسر ظهره واضاع اعتباره ، وقضى على مستقبله وهو آمن من كل اشارة ، سادر في غيه ، غارق الى الاذقان في فجوره ومخازيه .. فهو تارة مع هذه الغانية وتارة مع تلك يقضي اوطاره ، في ليال حمر قانية ، تفح منها روائح تزكم الانوف وتصيب الرؤوس بالدوار والغثيان .

ولما كان ويرلي هذا تاجرا ورجل اعمال ، فمن حقه ان يتاجر بالاشياء ، وبالبشر معا ، وهو ـ مع هذا وذاك ـ طاهر الذيل ، عفيف السمعة ، نظيف الشهرة .. لان مخازيه مخاز مستورة بجدران المال ، لا يجسر أي كان على اختراقها والتغلغل الى مواضع الفضيحة ومظان الرذيلة فيها . انه آمن لانه يملك ما لا يملك غيره من اسباب الجاه العريض ، والنفوذ القوي ، والسلطة المؤثرة . انه قتل زوجته كمدا وصبرا ، ولم يأبه ولم يرعو ، ولم يرتدع . ظلت المسكينة الى آخر دقيقة من حياتها المرعبة تعاني الاهوال وهي صامتة هامدة ، وعواطف الانفة والغيرة والكبرياء تقتلع منها معالم الحيوية معلما معلما حتى اتت عليها جميعا .

اما ابنها غريفرز الذي ولد في تلك البيئة المسمومة ، فقد تفتحت عيناه على الحقيقة ، فرآها كما هي واقعا ينز دناسة ووجودا عفنا ، انه عرف قدر نفسه وعرف صلات ابيه بخادمته تشينا ، وامه في قيد الحياة .. فلم يجد مندوحة من الفرار ببراءته من وادي الدنس ذاك الى منطقة المعامل ، بعيدا عن الاجواء المتكهربة المكفهرة وها قد ماتت امه شهيدة طاهرة ، امينة على العهد وفية لرباط الزوجية الاقدس .. لقد فر الصبي بجلده السليم لكي لا ينتقل اليه عدوى الجرب الذي كان ينتقل بسرعة فائقة في سني الوباء تلك ..

وبعد عشر سنين ونيف عاد غريفرز الى دار والده ، فماذا وجد ، وجد عشيقة والده تشينا وقد تزوجت بالمار هيكدال ، المصور الفوتوغرافي ، ابن هيكدال المسكين ، صديقه الذي اخلص له الود ، ومحضه عمق الوفاء . فماذا هو فاعل اذن حيال كل ذلك ؟ انه سيعمل كل ما يستطيع عمله من اجل صديقه ، وسيحاول ان ينقذه . ولكنه قبل ان يفعل ذلك لا بد له ان يستمع الى والده وهو يحدثه عن صاحبه الذي قذف به الى قاع البؤس فيقول ، « .. خرج هيكدال من السجن انسانا محطما لا يستطيع اي عون ان ينتشله .. ذلك ان بعض الناس الذين يهوون الى الاعماق يحملون معهم ما يثقلهم ، فلا يستطيعون ان ينجوا بانفسهم بالعودة الى سطح الماء مرة اخرى . » وهذا القول شهادة لا تدحض على نفسية التاجر الذي يدفع بغيره من التجار الى هوة الافلاس ، ويظل هو يترقب تاجرا آخر لكي يدفعه هو ايضا الى تلك الهوة . وكأن الوجود كله تدافع بالمناكب الى مهاوي المذلة والفقر والاذلال ، ومنارة ذئاب جائعة ينتظر كل ذئب صاحبه الاضعف ليمرض حتى يأكله تشبثا بالحياة امدا اطول .. هذه هي سنة الحياة ـ على وفق منطق الذئاب ـ فلماذا لا تكون سنة الحياة هكذا على وفق منطق الذئب الآدمي ، ويرلي ، ابي غريفرز الانسان الشريف ، المؤمن بالمثل العليا ، الواثق من وجودها ، المطمئن اليها ، الساعي الى بثها ونشرها بين عامة الناس وخاصتهم ؟.

ان المثل العليا لا بد ان تكون موجودة بكل قوتها وجبروتها ، لانها، ان كانت اخيلة دخانية ، فما معنى الحياة كلها اذن ؟. ايكون الناس جميعا قطعان ماشية وانعام ، همها بطونها ليس غير .. ايمكن ان يكون الانسان كومة من لحم وعظم ودم ، لا نفس فيها ولا روح ولا وجدان . لا ، لا ذلك غير ممكن ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان وهذا ما يؤمن به غريفرز اشد الايمان .

اما بالمار ، صديق غريفرز ، فهو لا يعرف شيئا عن المثل العليا ، ولا يريد ان يعرف . انه يعيش ايامه المعدودة ، باسباب معيشته المحدودة ، وهو مطمئن الى حياته ، متوفر على اسعاد زوجته تشينا وابنته هيدفيك التي يقل النور في عينيها تدريجا ، فضلا عن والده الذي لا يفارق غرفته الا الى خن البطة البريئة ، ليطعمها ويسقيها ويعنى بها كما يعنى بصيد الارانب من حين الى حين . الهدوء مخيم على العائلة ، والغرفة الرئيسية هي استوديو المصور ، والمياه تسير متثاقلة هينة ، على حسب التقاليد والاصول ، وكل شيء ـ في البيت ـ ينبيء عن رضا واطمئنان وقناعة .. ومع ان الاب هيكدال ، لا بد له ان يقبع في غرفته طويلا كل يوم ، ليستنسخ العديد من الصفحات على ضوء فانوس شحيح الزيت ، متقطع النور ، باجور يتقاضاها من ويرلي ، من طريق كاتبه الاول ، غروبرغ . فهو لم ينس الاساءة ، ولم يخطر على باله ان ينساها يوما ما .. ذلك انه وهو العسكري الشريف ، نال منه الكيد مناله ، ففارت السكين في قلبه عميقا .

ويحل غريفرز ضيفا ثقيلا على عائلة هيكدال ، ويشعر هيكدال بهذا الثقل افدح ما يكون الشعور ويتساءل مرعوبا : « ويرلي ، أهو الابن ؟ ماذا يريد مني ؟ » فيجيبه ابنه : « لا شيء . انه أتى ليراني . » ماذا يريد غريفرز اذن ؟ هاهو قد جاء بحمل باهظ فادح من ضمير متألم

كالح ، يشعر بذاته المطحونة طحنا فيفضل ان يكون كلبا ذكيا مفيدا من ان يظل في الوجود ، وهو ما هو عليه من عذاب مروع مخيف ، انـــه لا يجد لنفسه منطلقا غير ان يبوح بما في دخيلة نفسه من شؤون محزنة وانباء شريرة . فهل يسكت ويستمر في اجترار آلامه وهو تلك الكومة من الاعصاب المحترقة المتمزقة التي تقدح شررا كأنها البركان الذي يوشـك على الانفجار بانتظار الساعة الملائمة ؟ .

ها هو ذا قد سكت ردحا طويلا من الزمن ، فهل في قدرته ان يظل حارسا لكلمة السر ، وهو المؤمن بالصدق والصراحة والواثق كل الوثوق بالمثل العليا ؟ انه يعرف ان البوح بالسر الرهيب سيحطم عائلة بأسرها تحطيما تاما ، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يعرف انه لن يكون صديقا مخلصا لبالمار اذا لم يأخذ بيده ويضعها على مكمن السر . فماذا يفعل ؟ انه حائر ، متردد ، متخوف ، هذه الفكرة تستبد به وتقلقه وتشده شدا الى نفسه الصافية كالماء الضحضاح .. وتلك الفكرة تقول لـــه بالحاح : لا ترم الحجر في البركة الآسنة ، والا لا بد ان تكون مسئولا عما يتأتى من ذلك من مويجات تبتلع النفوس الصغار ، الابرياء والخطاة على الســواء ..

وبعد هذا الغليان النفسي الفاجع ينقل غريفرز السر الى صديقه بالمار ، ويعرف الاخير انه كان عائشا في دار استارها دجل ورياء ونفاق ، واذا بالعائلة كلها كيان هزيل لم يثبت على الزمن الا بالغش والاحتيال .. ذلك ان تشينا زوجته نفسها كومة من بضاعة فاسدة قذف بها ويرلي الاب ، لما لم يجد سبيلا الى غير ذلك ، وهو المتقلب المتلون ، الذي يعد النساء جميعا دمى تسلية وقوارير متعة الى حين .

وهيدفيك ، ما شأنها ؟ ما ذنبها ؟ ماذا قدر لها من مقادير الزمن ؟ ايصح ان ترمى في صحراء النسيان كما رميت والدتها ؟ هـذه الفتـاة البريئة ، الطاهرة ، هذا الكيان الملائكي ، امذنب هو ، ولم يقترف ذنبا ؟. اصحيح ان ذنب الاباء يقع على الابناء والبنات معا ؟ أعدل هذا ام جور ؟ ام هي شريعة الغابة السوداء ؟

وتحس تشينا بالعاصفة تتجمع وتلملم اشتاتها ، ريحا هوجاء من هنا وريحا سموما من هناك ، فالجو آخذ بالتلبد ، والسكون المريب ينبيء باخطار قابلة ، في حركة شيطانية يائسة . وتجد تشينا في وجه بالمار امارات الفزع والكرب والترقب والقلق .. ويلمح بالمار الى الامر تلميحا بقوله : « .. هناك كثير من الاشياء ينبغي للانسان ان يعتــاد عليها في هذا العالم » .. لا بد ان يكون اذن قد جرى ما كان متوقعا ، ولا بد من الصراحة ، وغريفرز كان قبل وقت قصير في معية بالمار .. ها ان الساعة قد دقت وحان الوقت لكي ينفض كل منهما غبـار الرياء عن نفسيهما . ان تشينا تعرف ماضيها ولهذا فهي عند المواجهة الاولى لم تفزع ولم تهن بل قالت بثبات متسائلة : « هيكدال هات ما عنـدك رأسا ، ماذا كان يقول عني ؟ » مشيرة بذلك الى غريفرز . فأجابهـا وسياط العذاب تعمي عينيه : « هل صحيح ؟ هل يمكن ان يكون صحيحا انه كان بينك وبين السيد ويرلي تفاهم حين كنت تشتغلين في خدمته؟» وبعد تردد قصير تجيبه : « ظننتك انك تعرف الامر . انه لم يترك لي راحة حتى قضى وطره مني . » واذن هذه هي ام ابنته . كيف يمكـن ان تخبيء ذلك عنه . غير ان تشينا تعترف بخطئها ذلك وتقول : « نعم. كان هذا الخطأ خطئي . كان لا بد ان اخبرك بكل شيء من زمن بعيد . » وعند هذا الاعتراف تشتد ثائرة بالمار عنفوانا ويقول ونفسه تتجرع الهوان قطرة قطرة : « ألم تكوني كل يوم ، كل ساعة ، تندمين على خيـوط العنكبوت ، خيوط الزيف التي كنت تنسجينها حولي . أجيبي كيف استطعت الا تتمرغي ندما وحسرة ؟ » . ها هو بالمار اذن يمر باشـد لحظات الحياة مرارة . وها هو غريفرز المتشبث دائما بالمثل العليا يحدث الزوج والزوجة بقوله : « توقعت بثقة وانا ادخل الغرفة ضياء التجلي ينسكب علي من كلا الزوج والزوجة . ولكني لا ارى الان غير الانقباض والظلام والسأم » . ويستطرد هذا المثالي الساذج فيقول مخاطبا بالمار :

« الحق اقول : ليس من شيء في العالم يمكن ان يقارن بفرح الغفـران حين يصب على الخطاة » . وهو ـ في ذلك ـ يمضي الى نهاية الشوط ، لانه لا يعـرف حلا وسطا .

ويأتي موضوع هيدفيك ، البطة البرية ليقض مضجع بالمـار ، ويبعثر افكاره ويمزق كل ما تبقى من نفسه الممزقة . انه يريد ان يعرف صلة هيدفيك به . ولهذا يتساءل وعقارب الشك تلدغه باستمرار واصرار مخاطبا تشينا : « اريد ان اعرف اذا كان لطفلتك حق ان تعيش تحت سقف بيتي ؟. » وهنا تلتمع عينا تشينا وتنكمش على نفسها وتقول : « وتسأل ذلك ! » الام لا تستطيع ان تفهم كيف يمكن ان يسأل عـن ذلك ، ولكن الاب ذا الشرف المثلوم لا يجد وسيلة اخرى غير وضـع السؤال هذا موضع التنفيذ بقوله : « اجيبي عن هذا السؤال الوحيد . الهيدفيك علاقة بي ـ أم ـ ؟ » وهنا تحدجه بنظرة ملؤها التحدي البارد وتقول ، « لا اعرف . » وهذا الجهل او التجاهل لا يزيد الشك الا تعمقا وايلامـا وارعابا ، ولذا لا يرى بالمار طريقا الى نفسه الملتاعة المعذبة الا بالفرار ، وتحس هيدفيك بالجو المشحون بالمأساة وتريد ان تتثبت من امرها وتحقق من امرها ، وتتساءل والمرارة تحاصر نفسها : « .. اظن انني اعرف ماذا في الامر . لعلني لست ابنة ابي حقيقة ؟ » ان النار التي تشب في ثنايا هذه الكلمات نار لا يمكن للزمن بكل مـا اوتي من قوة النسيان ، وسطوة التكيف ان يخفف من اجيجها .. لانها نار البراءة وهي تتلظى فجاءة ، فاذا بالحقد المقدس على المقادير ينفجر انفجارا عاصفا مدمرا .

وبينما العائلة تنحدر الى مهاوي المأساة ، اذا بصك طي رسالـة من ويرلي الاب يضمن حياة هيكدال الاب وهيدفيك طالما هما على قيـد الحياة .. فماذا يكون من امر بالمار وقد اتاه المال يركض بـل يعدو سريعا اليه ، وهو في وسط المحنة تتقاذفه تقاذفا .. ماذا يحق له ان يفعل والجرم الاثيم يحاول ان يغطي بالمال الثلمة التي ثلمها ؟. بالمـار يشعر ببرودة المال تسري الى اعصابه المتوترة المشدودة شدا شديـدا الى عظامه التي اخذت تتخلخل وكيانه الذي اخذ يتزلزل .. ماذا يفعل اذن ؟! ايحني رقبته ويجني ثمار الاستكانة والعار ؟ ايخضع لسلطان المال ، وهو السلطان الكافر الذي يلوي اعنف الرقاب أنفة ؟ وتثور في نفسه ثورة الكرامة ، وعزة الشرف ، ودواعي الرجولة . فيقرر ان يمزق الصك . ويخرج من البيت وهو لا يدري الهدف الذي يقصده ، وقد خسر كل شيء في الحياة ، بيته ، راحته ، زوجته ، طفلته ، التـي طالما احبها كل ذلك الحب الابوي الحنون . ودارت الدنيا في رأسـه فاصابه دوارها ، فما يدري ماذا يفعل ودماء السكين التي انغرزت في قلبه لا تزال تنز من شرايينه ببطء وتثاؤب وخبث .

ها هو ريلنك صديقه وصديق غريفرز يتحدث عن ماضيه في غيابه فيقول : « كان الملعون جميلا ـ احمر وابيض ـ حلم فتيات المخازن ـ في جمال الرجولة . فضلا عن مزاجه العاطفي السطحي وصوته اللطيف» وهنا يستشيط غريفرز غيظا ويقول : « أأنت تتكلم على بالمار هيكدال بهذه النبرة ؟ » فيجيبه ريلنك : « نعم . ان قضيتك قضية معقدة . فانت اولا مصاب بحمى الاستقامة الوبائية . ثم ـ والاسوأ من ذلك ـ انك دائما في خدر عبادة الابطال . لا بد لك ان تعبد شيئا خـارج نفسك . » واذن لقد ضاعت المثل التي طالما تشبث بها غريفرز والتي ضحى بحياته من اجلها ، وهي في عنفوان شبابها .. لقد كان الحق الذي آمن به كل ذلك الايمان الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه باطلا ، مجموعة من الاكاذيب ، وهذا ما توصل اليه ريلنك ولذلك فهو يقول مهدئا روع صاحبه : « حينما افكر في الامـر ، يا سيد ويرلي الصغير ـ لا تستخدم تلك الكلمة الغريبة : مثل عليا . ان عندنا كلمة وطنية رائعة هي « الاكاذيب » وعند هذا الحد يسقط في يـد غريفرز فيعترف بافلاسه الفكري ويقول وكأنه انسان آخر غير ما كانـه من قبل : « اتظن ان الكلمتين متصلتان ببعضهما ؟ » فيرد عليه ريلنك

صبحيني

صبحيني بقدك السمهري وبورد في وجنتيك جني
واشرحي لي بلحظك العربي أي سر من الفتون خفي
بين عينيك يأسر الالبابا

صبحيني بوجهك البسام كل يوم يا مصدر الالهام
واملأي يا رشوف بالانس جامي وانفحيني بحبك الابدي
وأميطي عن الهيام النقابا

ضل طيف المنى سبيل فؤادي فهداه شذا الهوى للسواد
حيث ألفاك يا هزاري الشادي تتهادين في جناني الحفي
بك وجدا ، ولهفة ، وارتغابا

هل درى العيد ان لي فيك عيدا يسكب العزم في العروق حديدا
قد أعرت المهاة طرفا وجيدا وتركت الابي غير أبي
بدلال يضني الفؤاد عذابا

يا محيا كالجلنار المورد وثنايا كالاقحوان المنضد
ما رآك المفتون الا تشهد وتملى من حسنك العبقري
نظرة تلهب الورى احقابا

حدثيني بحسنك الرقراق واثيري لواعج الاشواق
واغزلي من أشعة الاحداق شركا يا هوى المنى الوفي
وأسر به كي لا يضيع الصوابا

حدثيني بصدرك المواج حائرا مثل تائه في الدياجي
وأبيني عما به من أحاجي ورموز عن الهوى القدسي
وخذي بعدها نسيبي عبابا

صيدا — محمد العدناني

قائلا : ((نعم ، كاتصال التيفوس بالحمى القرمزية)) .

ويعود بالمار الى بيته ليفتش عن كتبه الضرورية له من اجل مشاريعه التي ستحقق له ـ على حسب ظنه ـ حلمه الكبير في الاختراع الذي ساوره كل تلك المدة . وتستقبله زوجته استقبالا حافلا بالمودة والرقة . غير انه لا يقابل ذلك الا بكل برود ، لقد عزم على امره ، وها هو ينفذ ما عزم عليه . فليس من قوة ترده عما اعتزم عليه . انه ماض في سبيله بعد ان انهار البيت الذي بناه بكده وجده وعرق جبينه انه لن يتلفت الى الوراء بعد الان ، فقد كفاه ما رأى من الاكاذيب التي ملأت ارجاء حياته ، في بيته ، في محله ، في صلاته مع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، في كل شأن من شؤونهم وشؤونه . وماذا عن هيدفيك التي احبته كل ذلك الحب وقصرت وجودها على وجوده ، هل سيتركها يتيمة بعد ان احست بحرارة الابوة ؟

ان البطة البرية التي احبتها هيدفيك ستكون الضحية ، الدليل على مقدار حبها لابيها اذا تفضل بالعودة الى بيته . ها هي هيدفيك ، في خم البطة ، تلاعبها وتبادلها معاني الالفة وامارات المحبة . انها في هذه الغرفة بانتظار الفرج ، بانتظار العودة التي ستعيد اليها الحياة بعد ان كادت تفقدها انها لن تستطيع العيش بدون ابيها . واذا كانت البطة اللعينة المحبوبة تحول دون هذه العودة فلتقض عليها . وتسمع طلقة ، واذا بجميع هذه الاحلام التي سادت البيت في هذه الساعة الحرجة ، اوهام بددتها الطلقة التي استقرت في قلب هيدفيك ، معلنة عن تضحيتها بنفسها في سبيل من احبت واذا بالفداء فداء عظيم .

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

لا احد يعرف من هو اول من اطلق هذا الاسم على هذا الشارع الا الله .

وكل ما يمكن معرفته هو ان الناس ينطقون بهذا الاسم في خبث تختلف بواعثه باختلاف الظروف والحالات ، ومع الجهل الذي يواجه كل سكان هذه المدينة الساحلية عندما يسألون عن اول من سمى هذا الشارع بهذا الاسم ، الا انهم جميعا يعرفون كل صغيرة وكبيرة فيه ، يتساوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم .. نساؤهم ورجالهم .. الكل باختصار .

وفي هذا الشارع ارتفع صوت عذب يردد :

خذ من عمري .. عمري كله ..
الا ثواني اشوفك فيها ..

ليختلط بصوت آخر يشبه هذيان المحمومين وهو يردد ربما في ذهول :

حبيبي ضمني ضمه ..

ومن بعيد كان يمكن الاصغاء الى آخر يستجدي الاعجاب وهو يصر ببلاهة :

اسأل مجرب ولا تسأل طبيب ..

وعلى طول الشارع الممتد من شرق حتى غرب المدينة ، ارتفعت الاصوات في صخب صارم ، عندما تتقيء بها اجهزة المذياع او الحاكي بلا هوادة ، وفي منطقة صغيرة وسط الشارع .. كانت متاجر الكماليات والإدوات النسائية ، تغص بالزبائن الذين لا يشترون منها شيئا ، بقدر ما يتلهون بالتطلع بحسرة الى الفتيات الفاتنات او الغير فاتنات ، للاعجاب مرة ، وللسخرية مرة ، وللعبث في كل مرة ، وغير بعيد من هذه المتاجر انتصب في تحد مقهى صغير في الجهة المقابلة لبعض الصائغين المنهمكين في اعمالهم ، بينما نظاراتهم ذات الاطر المذهبة ترقص على ارنبات انوفهم ، ولما كان جل زبائنهم من النساء ، فقد كان طبيعيا ان يغص هذا المقهى بالعاطلين الذين ارهقهم التجوال في الشارع ، فقرروا اخذ قسط من الراحة في هذا المقهى ، استعدادا لاستئناف الغزو الذي لا تزيد اسلحته عن الغمز واللمز والاستعانة بالحواجب والعيون ، والى جانب هؤلاء يوجد قلة من الرجال الذين ينتظرون زوجاتهم او قريباتهم حتى ينتهين من شراء ما يحتجنه من متاجر هذا الشارع .

كانت الفضيلة تنتحر في هذا الشارع ، ولكنه انتحار مؤقت لا يتعدى سويعات من العصر وبداية قليلة من الليل ، ومع ذلك فهي مبعث قلق لمن تضطرهم الظروف العبور من هذا الشارع خشية اتهامهم بالانجراف في تيار المتكالبين على تحطيم قيم يرونها بالية .

وعلى واحد من هذه المقاعد



بقلم خليل ابراهيم الفزيع

المنتشرة امام المقهى الصغير ، جلس دهيمان يرصد في شبه ذهول الرائحات والغاديات من الفتيات الكواعب ذوات الصدور النافرة ، كان شيئا جديدا عليه ان يشاهد هذا الزخم الآدمي المستمر .. وهذا الفتون في هذا الشارع . وتذكر نساء الصحراء اللواتي لوحت بشراتهن الشمس واحالت الوانهن الى سمرة بات يكرهها الان ، وهو يشاهد ذوات اللون الخمري والابيض والاسمر الذي لم تحرقه الشمس



وتحيله الى لون الفحم .. كما يشاهد الوانا متعددة تجمع بينهما الاناقة والقدرة على سلب العقول ، اما العجائز اللواتي يمشين على مهل ، فقد لا يختلفن عن عجائز الصحراء الا في مظاهرهن الغريبة عندما يتبرجن كخير وسيلة للهروب من الشيخوخة والعودة الى الشباب .

كان ينظر الى كل ذلك كالجائع عندما يتطلع الى واجهات المطاعم الزجاجية ، فيبصر من خلالها الذ انواع الاطعمة وراءها ، ولكنه لا يملك الحق في الاختيار ، فيكتفي بأن يمصمص شفتيه في حسرة متناهية.

ولاحظ عجوزا تمشي بمهل وتثرثر ، بينما تمشي بجانبها فتاة جميلة تصغي الى ثرثرة العجوز في صمت ، دون ان تعلق ولو بكلمة على ما تقوله العجوز .. وترك نظراته تتدحرج على ارض الشارع ، لتتبعهما ، حتى اختفتا في جموع المتسكعين بخطواتهم التي بدت بليدة كأفكارهم ، والمتسكعات اللواتي لا هم لهن غير ارتياد هذا الشارع ، وانتبه على صوت يسأله في لثغة مضحكة .

ــ تيف حالت ؟

كان المتكلم يقف امامه ، وكان يريد ان يقول « كيف حالك » ولم يفهم دهيمان ماذا يقصد هذا الواقف امامه والمسك بقلم وورقه ، فهز رأسه في تساؤل يشوبه الخوف .

ــ انا تخفي ..

مرة اخرى استعصى عليه الفهم .

كان الصحفي يسجل في ورقته كلاما لا يعرفه دهيمان ، ربما كان يكتب وصفا لهذا البدوي الجالس بمفرده فوق مقعد وامامه منضدة وضعت عليها زجاجة مرطبات رغم ان الجو لم يكن حارا ، وكان يرتدي ثوبا باكمام فضفاضة ، و «غترة» حمراء ربطها على راسه بعقال ترك باقيه يتدلى خلفه ، وقد تحزم بسير جلدي تدلى من جانبه جراب مسدس ، كان خائفا من هذا الواقف

امامه والمشغول بالكتابة . ولما تطلع اليه وجد وجهه خاليا من اي تعبير ، فاستبعد الخوف ، وقال بلهجة بدوية محببة :

ـ يا ابن الحلال اتركني افضل لك .

ولم يشأ الصحفي او التخفي كما قال عن نفسه ان يتورط مع هذا البدوي في موقف لا تحمد عقباه ، فاكتفى بأن قال بلا مبالاة :

طث ..

نطق الثاء مضخمة الى اقصى حد ، بدل الزاء . وانصرف .

وعاد دهيمان يمضغ الصمت ويجتر الحسرة .

وغير بعيد عنه ، جلس ثلاثة شبان في مواجهة الشارع ، واستمر النذل القصير يقفز كالعصفور في تجواله الدائم بين المناضد .. يلبي الطلبات ، ويتلهى بمسح المناضد الخالية بقطعة قماش ملوثة لا يلبث ان يرميها على كتفه بحركة لا مبالية .. وكان الشبان الثلاثة منهمكين في تقبيل شفاه خرطوم « الشيشة » بالتداول ، وهم يطلقون تعليقات سمجة عن هذه او تلك من الفتيات والعجائز . وسلخ احدهم نفسا لاهبا من صدره وقال بصوت مشروخ :

ـ انظروا اليها .. انها ملونة . تبدو كقوس قزح .

ولم يرد عليه احد .

واصغى « دهيمان » الى صوت ينبعث من داخله ..

ما اجمل الحياة في المدينة ، وما اكثر المباهج فيها ، واين الحياة في الصحراء منها .. هناك الحر والقر وشظف العيش ، وهنا جمال الحياة ويسرها .. هناك يتعذر الحصول حتى على الماء ، وهنا يرشون به الارض ، وفرق بين من يستجدي الارض ماء ومن يمنحها هذا الماء . انهم هناك يموتون .. ويموتون حتى يموتون ، ولكنهم هنا يحيون .. ويحيون .. حتى يموتون ، وشتان بين من يموت ليموت وبين من يحيى ليموت . وهل تتاح لهالحياة في هذه المدينة وهو مشدود الى الصحراء باكثر من وتد .. زوجته « وضحة » التي تعبق منها رائحة الصحراء دائما ، وامه ووالده وكل رجال قبيلته .. ماذا سيقولون لو قرر الحياة هنا .. وغير ذلك كيف سيعيش ؟!! وابعد عن ذهنه هذا الخاطر بعد جهد .

ومرت امامه سيارة في بطء ، كأنما لتعلن حقها القانوني في السير بين هؤلاء العابثين .. ولكنها جعلته يتذكر جمله الذي اتى به الى المدينة، وتركه خارجها بعد عقله ، وقلبه مطمئن ، فالامان هنا اصبح من الاشياء البديهية جدا ، وعندما سمع صوت منبه السيارة .. تذكر حكاية حدثت لبعض معارفه في الصحراء عندما كان راكبا جمله ، ففوجيء بأخيه المسافر يعود وهو يقود سيارة خرجت عليه فجأة من وراء اكمة ، وجفل الجمل ، فرمى به ارضا وولى هاربا ، وعندما عرف قائد السيارة ، صمم وبحسن نية على الانتقام ، فترصد لاخيه في نفس المكان ، ليظهر فجأة امام السيارة صارخا عليها لعلها تجفل وترمي اخاه كما رماه جمله ، وكانت النتيجة ان دهسته السيارة ، حكاية مضحكة ، ولكنها مؤلمة ايضا . واحس « دهيمان » على التوالي بالحزن ، ثم بالضيق ، ثم بالغضب ، ولكن النصر كان للابتهاج في النهاية ، ولم تعد نفسه تحمل غير السرور ، لانه يشاهد هذا العرض المبهج من النساء الجميلات والعجائز المزوقات والشبان ذوي الشعور المقصوصة المدهونة ، والرجال الذين يتظاهرون بعدم الاهتمام ، بينما نظراتهم تقفز في خبث لتستقر على رقاب عاجية او عيون يسلبن ذا اللب حتى لا حراك به .

عاطلون يبحثون عن التسلية على شفا حفرة من الرذيلة .

والتفت دهيمان ليجد ان الشبان الثلاثة قد تركوا اماكنهم ، وحل محلهم رجل تبدو عليه سيماء الوقار ، ويكاد الجد يميز صوته ، وهو يمسك بطفلين في عمر الزهور ويجبرهما على الجلوس ، بينما يحاولان الافلات من سيطرته ، ولعل غضبه الذي وصل منتهاه قد أوحى للطفلين الصغيرين ان لا بد من الامتثال للامر الواقع ، وبعد ان هدءا التفت الرجل الى « دهيمان » ونظر اليه ثم قال مخاطبا الطفلين :

ـ من لم يصمت منكما فسيأخذه البدوي .

فرسم على شفتيه ابتسامة ساذجة وقال :

ـ نعم .. سآخذ من لم يصمت منكما ، واذهب به الى الصحراء .

ولم يكونا بحاجة الى مبرر جديد للصمت ..

قال الرجل : انهما شقيان .. لقد اتعباني ..

واندمجا في حديث ودي .. وكأن كل واحد منهما يعرف الاخر منذ سنوات ، بينما صمت الطفلان ، وقد قبع كل منهما في مقعده ، ولم يخل حديث الاثنين من تعليقات عابرة على من يمر بهما من الناس .. من النماذج البشرية التي يزخر بها هذا الشارع ، ومع الاختلاف المؤكد بين تفكير كل منهما الا ان الزاوية التي نظرا منها الى كثير من الامور كانت واحدة ، لا لشيء الا لان احدهما حاول الوصول الى مستوى اخر ، في الوقت الذي حاول فيه الاخر النزول الى مستوى محدثه ، ولكن اوتار صوت الرجل كانت توحي باستعداده للغضب في أي وقت ، ولكن هذا لا يعني عدم استعداده للتفاهم السليم وعقد الصداقة مع من يريد ، وفي هذه النقطة يلتقي الاثنان اكثر من التقائهما في اي نقطة اخرى ، وكان الرجل ينوي ان يدعوه لتناول فنجان قهوة في منزله ، بعد ان عرف انه سيعود الى مضارب قبيلته بعد ان باع ما معه من « سمن بري » واستلم قيمته الموجودة في « مزودته » التي لا تزال على الارض

قصيدة الوداع

هـو موعد قـد لاح فـي أفقـي فعشت العمر لـه
كـم داعبت نفسـي رؤا ه ورام قلبـي آجلـه
غيبتـه بيـن الجـوا نح فهـو منها وهي لـه
وسعيـت لا ابغـي سوا ه ولست عمـري نائلـه

ودعتـه ومنـاي أن أحيا قريبا فـي هـواه
وجـدا يـؤرق جفنـه ولظـا يعربد فـي دنـاه
اطويـه بيـن جوانحي شوقـا وتطويني يـداه
أفنـى لديـه راضيـا وأذوب طوعـا فـي دمـاه

غـاضت ينابيـع المـود ة وانطـوى املـي الغريـر
وغرقت فـي صمت المسا ء معاتبا قـدري الكبيـر
تتفجـر الالام فـي صدري ومـن قلبي الكسير
والدمـع اغـرق وجنتي وهدنـي السـأم المريـر

دمشق — سلافة العامري

بجانب المقعد الذي يجلس عليه ..

وكان الرجل ايضا على استعداد لان يخبره بأنه سيرحب بزيارته فـي منزله كلما حضر الى المدينة .. وكان هذا طبيعيا بعد هذا الاندماج فـي الحديث عن الحياة هنا والحيـاة هناك . وتطلع الرجل الى احـدى الجهات ، وركز كل انتباهه فـي الوقت الذي كان فيه « دهيمان » يتكلم ، وعندما راى انصرافه الكلي .. التفت هو الاخر ، فراى الرجل ينظر الى امراتين قادمتين على بعـد يسمح بالتأكد من جمالهما . وقال محاولا الا يسمع صوته الجالسـون على المقاعد الاخرى :

ــ انهمـا جميلتـان .. هـل اعجبتاك ؟

وكان الرجل مشغولا بالنظر الـى المراتين بحيث لم يسمع ما قالـه « دهيمان » الذي عاد مرة اخرى يؤكد :

ــ انهما جميلتان ..

ــ من تعني ؟

ــ اعني المراتين اللتين تنظر اليهما .. انظر ..

وغمز بعينه بعد ان صرف نظـره للتطلع بفضول الى المراتين ، وكانتا قد اقتربتا اكثر ، وعندما التفت الى الرجل ليواصل تعليقاته التي كانت غير مهذبة ابدا .. راى وجه الرجل قد تغير واكتسحته موجة من الغضب لا سبيل الى نسيانها فسأل : مـا بـك ؟

ولم يجب ..

فواصل « دهيمان » تعليقاته بينما ظل الرجل ساكنا ، وكأنـه يعيش فترة السكون الذي يسبق العاصفة ، وتصلبت عيناه علـى « دهيمان » بنظرات ثلجية باهتة ثم صرخ فـي وجهه :

ــ ماذا تقول ؟

واستغرب دهيمان هـذا الصراخ فسأل :

ــ ما الذي اغضبك ؟

ــ كيف تجرؤ على هـذا الكلام القبيح ؟

ــ أي كلام قبيح ؟

ــ وهل هناك ما هو اقبح مـن الفاظك ؟

كان غاضبا الـى اقصى حدود الغضب فاستطرد :

ــ الا تعرف ان هاتـين المراتين هما زوجتي واختي ؟

وواضح ان الطفلين فرحا بهـذا الخبر ، اما « دهيمان » فقد نسي كل شيء تقريبا ، ما عدا انه تلفظ فعـلا بكلمات لا تليق ..

ومن بعيد .. صرخ باب حديدي لمتجر تغلق ابوابه ، وفرك احدهـم أذن مذياعه ليسكته ، بينما تشاجر اثنان لسبب غير معروف ، كـل ذلك في الوقت الذي عاد فيه البحر ليغسل من جديد رمال شاطيء هذه المدينة الساحلية .

السعودية ــ خليل ابراهيم الفزيع



فقراء الناس

مجموعة قصص ـ تاليف جورج سالم ـ صفحة (؟) ـ منشورات الفن الحديث العالمي بدمشق ـ مطبعة (؟)

لم تكن مجموعة « فقراء الناس » جديدة او غريبة علينا ، فقد قرأنا أكثرها في المجلات العربية . وكنانلاحظ دوما ترابطا في الخط العام الذي يهيمن على القصص ، ونشعر بهذا التناوب بين البرودة والحرارة، برودة العاطفة وافتعالها ، وحرارتها الملتهبة التي أدت في بعض المواقف الى قصور في التصوير .

يجدر بنا ، قبل ان نخوض في البحث ، ان نلحظ هذا الترابط بين ما يؤمن به جورج سالم كمفهوم للقصة وفنيتها وبين ما استطاع ان يتوصل اليه من التعبير . فما هو مفهوم القصة عنده ؟ انها كما يقول « نظرة الى العالم والوجود وحكم عليهما من خلال حادثة او تجربة انسانية . وهي كسائر الفنون الادبية وسيلة يجد فيها الكاتب والقارىء معا سبيل الخلاص من الوضع الانساني . وذلك بنقد هذا الوضع عن طريق تصويره وتعريفه والسمو به الى وضع انساني أفضل (١) » فهل أحسن جورج سالم التصوير والتعريف بوضع مجتمعنا او بيئته هو بالذات ؟! أجزم بانه حاول ، وتعب في محاولته للوصول الى هذا الهدف .

نحن امام مجموعة تحكي معظمها مشكلة الموت ، وتعالجها من زاوية تضيق وتنفتح دون تحديد او تخطيط مسبق ، وهذه المعالجة تعتمد الى حد بعيد على التصوير الدقيق والافتنان في رسم المواقف الدرامية .

ان « فقراء الناس » وهي القصة التي سميت المجموعة باسمها ، تبدأ بتوتر ساذج يتصاعد مع سير الاحداث حتى يكتمل العقد وعندها نجد النقطة القصوى للتوتر تتخذ شكل البكاء والدموع ، وهي في حقيقتها تعويض عن الخوف او هي تعبير عنه .

ويمكننا ان نعتبر هذه القصة خير ما في الكتاب فنا وعرضا ومضمونا ، فقد توافرت لها مقومات اصيلة منها الصدق الحار ، والاندفاع الفني ، والتعبير الحي التمثيلي ..

القصة تحكي على لسان الكاتب الذاتي شعور تلميذ خرج مع رفاقه يلعب في المقبرة كالمعتاد عقب انصرافه من المدرسة . وفجأة تخطا باب المقبرة تابوت كالح أمامه « مجموعة من الناس يتقدمهم فتى صغير يحمل صليبا خشبيا ومن ورائه كاهن قصير القامة ، ذو لحية بيضاء ، وظهر مقوس ، وكان رجال أربعة يحملون نعشا كالح اللون قميء الشكل ، ومشى وراء النعش خمسة رجال محمرة عيونهم ... » وبدافع الفضول يجري التلميذ مع الرفاق نحو النعش ، ولكن الكاهن اخذ يصرفهم وكأنما يريد ان يحجب عنهم سرا . وعندما تم كشف التابوت رأى الاولاد شعر الميتة الاشقر التي سرعان ما غيبت تحتالتراب ، وحمل التابوت الفارغ، وانصرف المشيعون .. وسط هذا التوتر الفني يقف الكاتب ليعمق المشهد ويحلله في اسئلة ساذجة ولكنها ذات دلالة مؤسية :

« اننا نريد ان نفهم وان نعرف .. ولم نفقه شيئا مما جرى حولنا .

ـ لماذا ؟

ـ لماذا تركوا الميتة بدون تابوت ؟

ـ الى اين مضوا بالتابوت ؟

وسالت أنا :

ـ لماذا لم نر موسيقيين يتقدمون النعش والميتة شابة ؟!

ـ لماذا ؟ ؟ »

ليس الفضول الدافع الوحيد لهذه التساؤلات ، فهناك في أعماق الانسان ، حتى الصغير ، خوف فطري من الموت ومن النهاية ، ولعل الشماس قد اوضحللاولاد ملامح المأساة وهو يبغي من ذلك قطع الافكار السوداء عن رؤوسهم . يقول « الله يرحمنا .. انهم لا يملكون ثمن تابوت ، ولذا فالاوقاف تعيرهم التابوت » . ونشعر ان الاولاد يتساءلون « ولماذا هم قوم مساكين لا يملكون ثمن التابوت » .

ويعود التلميذ الى امه « أمي سأسالك شيئا .

ـ ما أكثر اسئلتك ، قل ، ماذا تريد ؟

ـ أماه ، هل نحن فقراء ؟

ـ فقراء جدا ، ولكن لماذا هذا السؤال .

فلم اجب وأجهشت بالبكاء .. »

بدون موسيقى او باقات من الورد ، وبدون جماعات تنوح وتبكي قبرت الشابة الفقيرة ، وهذا حال كل فقير . هذا القفل الرائع للقصة الذي يخفي وراءه دفقة من اسرار الوجود .. والحياة .. والموت ، يحيل متعتنا وتجاوبنا الى مشاركة تامة مع احاسيس التلميذ. حتى سذاجة الاطفال لا يمكن ان تبتعد في مضمونها عن الانسان ، حتى سذاجة الاطفال تدرك معنى البداية والنهاية .

ان الحياة في راي جورج سالم مأساة دائمة قمتها الموت ، ولكنه لم يصور لنا ذلك خاليا من الافتعال . اقول هذا وانا على ثقة ان الفاصل الزمني قد لعب دوره في المجموعة . « فمصرع الفتى الأعمى » التي قرأناها منذ سنوات عديدة في مجلة « الحديث » اشعرتني بفراغ هائل بين السطور رغم ما فيها من نكهة شعبية . فالحرية التي ينشدها الاعمى هي مطمح انساني عام . وبعد ان تخلص الفتى الاعمى من سيطرة حميدو عليه ومن ابتزازه امواله التي يستعطيها ، تنفسنا الصعداء ونحن نتأمل هذا الفتى يفوز بحريته ويريد متابعة الطريق وحيدا منتشيا . ويبدو ان انحدار الاعمى وموته لم يكن سوى لعبة درامية على طريقة الافلام . فاجأتنا دون ان ندرك الوجه الفني لهذه المفاجأةالفريبة . اما محاولة الكاتب جعل السينما اداة فساد وشر فاني اعتقد ان شرور السينما لا علاقة لها بمصرع الفتى وان حاول الكاتب ان يجعله نتيجة لادمان حميدو رفيق الاعمى رؤية افلام البطولة والتمرد والسلب والنهب . لقد احسن جورج سالم في التحليل وبرع في ذلك .. ولكني آخذ عليه تعمده الدائم التأثير على معنوياتنا النفسية وطريقة تفكيرنا ونظرتنا الى الموضوع وذلك من خلال مقدمات ومواقف مفتعلة يحاول ان يشابكها لتكون موضوعا دراميا . ففي قصة « على باب المدرسة » حاول ان يشد انفاسنا منذ السطور الاولى ليعطينا نتيجة سريعة دون ان تتفرغ لها بانفسنا . وهو لم يكتف بذلك بل يريد ان يؤكد ان موت ابن آذن المدرسة ثم طرده كان مأساة دامعة لذلك يبدي شعوره الخاص حين يقول « مسكين ابو احمد ، لقد دفن ابنه مرتين ». مقدمة ونتيجة واسف ! ان مثل هذا الاتجاه نجده ايضا في « ممر معتم طويل » وفي « حادثة تافهة » . فالتقرير الكامل للمأساة وسد الثغرات التي يمكن ان نعبر منخلالها الى انفسنا ونعالج معها الموضوع قد تركنا الى نهاية القراءة سلبيين . وهذا الطابع التقريري يتضح

(١) ـ ١٢ قصة من حلب . ص١٠٩ منشورات عويدات . بيروت .

تماما في قصته « موت البجعة » .

وقع الاستاذ جورج سالم في بركة الافتعال الفني ، وبدا ذلك جليا في قصته « حريق في القرية » . فالموضوع يتناول الحقد في بيئة ريفية بعيدة عن حياة الكاتب . فافتعال حادثة الحريق وسرد الحوادث الفارغة من كل ترابط ينقلب فجاة الى كشف لخلفية الحقد فاذا به شفقة ورأفة ! أما كيف اثر منظر شوقي ويداه ملتهبتان في نفس عدوه جاسم فبددت احقاده وانطفأت ثورته ، فانا على يقين ان التكلف هو الذي اجبر الكاتب على ان يختم قصته بهذه النهاية . لاننا منذ بداية القصة ونحن امام مشاهد وصور عامة لا علاقة لها بالنهاية الا بالاسماء فقط !

لقد استفاد الكاتب من ذكرياته وماضيه ، فقدم لنا لوحة شعبية اسماها « صباح ماطر » . ويبدو ان الحوار اشد ما في اللوحة حركة لانها تمثل الحياة الشعبية خير تمثيل ، فضلا عن انها تزخر بالعاطفة الوجدانية ، وبالتشارك الداخلي مع ابناء الحي . ولكن الاهتمام الزائد بالجزئيات واعطاءها مزيدا من العناية يميل بالموضوع الى السطحية ، ويصرف الكاتب عن المضمون ليقع في تصوير الحركة فقط ورصدها .

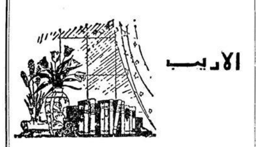
وفي رأيي ان سبب هذه السطحية قد يعود في حقيقته الى محاولة الكاتب حشر نفسه في كل شيء . اننا قد يستهوينا ان نبحث ونفتش عن فلسفة الكاتب وشخصيته من خلال الموضوع ، ولكننا نرفض بشدة ان يعطينا صورته وملامح نفسه مباشرة ودون صلة بالموضوع . ان المأساة الحيوانية لا تختلف عند الصغير والكبير في قصته « في ممر معتم طويل » ، وهي في ذروة احتدامها تجبرنا على تغطية اعيننا ، وفتح قلوبنا امام المشاعر الصادقة .. فتى اجبرته الظروف ان يتقدم بطلب عمل الى دائرة حكومية وهو في سن غير قانوني . لقد اغرق الكاتب في مقدمة تحدث فيها عن نفسه وتشنجه وضيقه ، واسهب في تقديم نفسه للقراء وكانه هو محور القصة ، او هو يريد ان يوحي ان بعد المقدمة قصة من طراز جديد !

لفت انتباهي منطق غريب اراد الكاتب ان يبشر به على لسان بطله في قصته « على تخوم المدينة » . ففي معرض تبريره صلة البطل المشينة بالعشيقة المتزوجة يقول : « .. ولكن تاملوا ايها الاحياء هذا الهواء الذي نتنفس وحللوه جيدا ، أفلا ترون اننا نتنفس القذارة والاوساخ صباح مساء ، واننا نتغذى بها وهي في كل قطرة من دمائنا ». وهذا يهون امام قول العشيق وهو مغرق في اللذة « الم يدر بخلدكم يوما ان معظم الناس مرضى وان الارض مستشفى كبير لا يشفي الناس من امراضهم الا الموت » .. هروب من مواجهة المجتمع ، شذوذ في التفكير ليس له من دواء غير الموت !! والشذوذ الاكثر وضوحا اختيار المقبرة مكانا للقاء العاشقين ، لان الناس يعرفون بعضهم لا بل فضائح بعضهم ، والمدينة مراقبة بألف عين ، الا المقبرة فهي ذات سور عال ، ومنسقة كحديقة قصر قديم !

وقبل ان انهي هذا الاستعراض اقف قليلا عند « حادثة تافهة » . ففي هذه القصة بالذات يرتفع الكاتب من البحث المباشر عن الموت الى وسيلة فكهة ولكنها مؤلمة ، وحجته في ذلك انه لا بـأس (ان نسرد الاشياء التي تؤلمنا ونعيد سردها) .

ان جثة الفتاة القروية التي وجدت ميتة على درج الطبيب اصبحت مشكلة معقدة ، اذ يجب التخلص منها سريعا ... التخلص من السوء والشر الممثل بالموت . لقد منحنا الكاتب بعدا نفسيا عن الموت .. ووضع امام اعيننا تجسيدا للشر الذي هب كل ذوي العلاقة الى التخلص منه بأية وسيلة ، فعلى الرغم من ان الموت شيء طبيعي ، ونتيجة قصوى للحياة فالناس يبتعدون عنه لا هربا فقط ، بل ايمانا منهم بأن الموت يعني العدم .

ان حصاد الموت في هذه المجموعة بلغ ذروة التعبير ، وهبط احيانا الى درجة الاسفاف والتقرير . ولكن يبقى التعبير الحي ، ودقة



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

ندفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

التصوير ، ورسم المواقف ، وبراعة الايحاءات ، على الرغم من فشل بعضها ، ميزات رئيسية للمجموعة .

وأحسب ان جورج سالم استطاع ان يعطينا فكرة تامة عن الموت ، ولكنه قصر عن فلسفة الموت ، وهو التعمق في دراسة مشكلات الموت عند تولستوي ويونيسكو ؟!

حلب — جهاد الكاتب

•

فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية

تأليف لويس غرديه و ج قنواتي ـ وقد نقله الى العربية الشيخ الدكتور صبحي الصالح والاب الدكتور فريد جبر الاستاذان بالجامعة اللبنانية ـ الجزء الاول ـ ٣٨٠ صفحة ـ من القطع الكبير ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ مطبعة (؟)

منذ ظهرت الاديان نشأ ما بينها التجاذب ، لان تجاذبها من طبيعتها المتشابهة . واذا ألف المرء أصحابها أحب ان يعرف افكارهم ، فلقد سلخت في التدريس اربع سنين في مدرسة الاباء اللعازاريين بدمشق أعلم الادب العربي في صف الشهادة الاخيرة ، وهنالك جعلت تخفق امام ناظري سوابغ المسوح على جسوم الرهبان ، وكان ثمة راهب في مطلع تدريسه هو فريد جبر الكاهن المجتهد ، وكنت أرى فيه مخايل التألق والنباهة ، فجعلتني له صديقا ، وفي دار الشام عرفت الزميل النابغ الدكتور صبحي الصالح استاذا في كلية الاداب بالجامعة السورية ، سكن دمشق واعتزت به هيئات التدريس الجامعية فيها .

وحين تعاور تدريسي على بيروت خلال هذا العام استاذا محاضرا في كلية الاداب بالجامعة اللبنانية ، مارست لقاء الشيخ والراهب معا عاكفين على نقل الكتاب الذي يحمل اسم « فلسفة الفكر العربي بين الاسلام والمسيحية » عكوف النحل على أوعية عسلها ، فقلت لهما مما قال الشاعر الخالد احمد شوقي حين رأى مثل هذه الالفة الحبيبة :

والفنا الصليب على الهلال
وأقبلنا كصف من عوال
يشد السمهري السمهريا

والشيخ الجليل الدكتور صبحي الصالح الى كونه اديبا واستاذا كبيرا ، فانه علامة اسلامي حنيف وكذلك القس الكريم جبر الذي يدلف في كهنوته الى مراتب التفوق .

ولعل قائلا يتسائل : فيم جعلت هذا الكلام مقدمة لتحليل هذا الكتاب والتعريف به وعرضه ؟ فأنا ذو مذهب ، هذا شأني فيما اكتب في موضوع الكتب لا اهجم عليها الا بمثل هذا المفتاح الذي أشق به بابها عن التعريف بمؤلفها او كاتبها ليعرف القاريء اين مواقع الوصف لشخوص يقدمون اليه غذاء الروح وفاكهة الفكر .

وكنت حسبتني انا الوحيد في فرصة هذا التناسق الروحاني والتشابك العقلاني بين المسيحي والمسلم وبين التشريع الاسلامي واللاهوت المسيحي ، واذا بي اجد الاستاذ العظيم الدكتور فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية قد سبقني الى مربعين للتعريف بهذا الكتاب وتوصيفه للقارئين والسامعين ، فقد كتب مقدمة له شافية وتكلم عليه في الاذاعة اللبنانية ونشرت مجلة الاذاعة حديثه الطلي العليم ، وكانت مآثر هذا الاستاذ العظيم متفتحة كأزاهير الربيع بل كأزاهير لا تفنى على نحو ما كان يصف هذه الازاهير الخالدة الشاعر « كاتولوس » الروماني زعيم مذهب الرومانطيقية القديمة ..

كان والدي شكري المحاسني يرحمه الرحمن ، من رجال الدين على رأسه عمامة بيضاء وقد توفي وعمري سنتان ، ولم يترك صورة له أراه بها ، فلما وعيت قلت لامي :

ـ كيف كانت صورة والدي وما شكله ؟

فجعلت تدلني على الشيخ رمزي الطيلوني في حينا بالقيمرية بدمشق وهو قريب لنا ، فكنت أزوره واصعد نظري فيه واصوبه اذ كنت ارى فيه ـ وهو لا يعلم ـ صورة والدي ..

وكذلك ـ مع فارق القياس بالعمر وانا اليوم اكبر سنا من الشيخ الدكتور صبحي الصالح ـ اجد في عمامته البيضاء ما كان على رأس والدي .

اما الراهب الدكتور جبر فاني محدثه بهذا الحديث :

ـ صعد بي صديقي الكاتب الكبير جان كميد وعمه الجليل الاستاذ سعيد منذ سنتين الى دير حريصا المطل على جونية وهناك أنس بي أباء الدير واخوانه واقترحوا ان اقول فيهم شعرا فكتبت لهم على ورقة شعرا معناه :

اني لاصبو ان اعيش عيشتكم ،
يا سكان هذه الاديار العوالي ،
لاطل على آماد البحر وانعم بأريج الجبال .

ولم تكن مني هذه الرغبة غريبة ، فان شعراء العرب والاسلام تاقوا الى مثلها ، حتى نظم الشاعر ابن المعتز مقطوعة رائعة في هذا الشوق في قصيدته التي اولها :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر	ودير عبدون هطال من المطر
ايام اسمع في ضوء الصباح بها	في غرة الفجر والعصفور لم يطر
اصوات رهبان دير في صلاتهم	سود المدارع تفارين في السحر
مزنرين على الاوساط قد جعلوا	على الرؤوس اكاليلا من الشعر

اما هذا الكتاب فبحر زاخر وسفر جامعي كبير ، ضم تراث ما في الدين الاسلامي والمسيحي وجعلهما على مائدة واحدة يعقد بين شؤونهما شواجر الموازنات وبدائع المقايسات ، متخذا اول الامر الفلسفة مهادا وجامعا وجواهر الالوان في استقصائها وسيلة لوحدة الفكر وتقريب الرأي ، ثم هو يسبح سبحا طويلا في المذاهب الفكرية كالاعتزال والجبرية والاختيارية ، وما حار في امره اخوان الصفا . ويناقش المذاهب ويرد على المتحيفين فيها والشكاك والضالين واهل الزيغ والملاحدة ، ولا يفوت على قارئه النزعات الحكيمة والميول الصوفية الغزالية ، ثم يجيء الى العصور الاخيرة بخيار ما كان من التسامح الديني والتعقل العبادي عند المعلمين العظيمين الشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده .

واذا كان من ملتزم التحليل النقد فاني مصيب اصابة سديدة في هذا الكتاب فاعتب على ناقليه انهما لم يعرفا القاريء بمؤلفيه وكان الجدير بهما ان يعقدا فصلا يبينان به علم المؤلفين واعمالهما وان لهما لآثارا مشهورة وانا عرفت الاب قنواتي ودهشت لاعماله في التأليف الاسلامي والبحث اللاهوتي ، فكيف فات الشيخ والراهب ان يطرحا في مقدمة الكتاب ولو سطورا يعرفان بها القراء بالجهد العظيم والمعنى الكريم الذي طلع به المؤلفان الكبيران غرديه وقنواتي بهذا الكتاب الى العالمين الاسلامي والمسيحي .

واذا ختمت هذا الكلام وجدت فيه الطيبين ، طيب الافتتاحية وعطر الخاتمة فقد بصم على ظاهره الصديق الاستاذ الكبير الدكتور احمد مكي عميد كلية الاداب بالجامعة اللبنانية كلمات منتقاة تتيه بالفكر ، حيا بها هذا الكتاب الذي يتصافى فيه المسلم والمسيحي منفردين ومجتمعين في سيرورة الدينيين الكريمين ، ويتلاقى في صفحاته الايمان الاسلامي والقنوت المسيحي .

دمشق — زكي المحاسني

فصل في الحكاية

ديوان شعر – للشاعر المصري فتحي سعيد – ١١٢ صفحة – منشورات دار الاداب ببيروت – المطبعة (؟)

يقف « فتحي سعيد » في طليعة الجيل الاوسط من الشعراء المصرين، هذا الجيل الذي شاهد انحسار التيار الرومانسي عن مجرى شعرنا المعاصر ، وبداية تدفق التيار الواقعي فيه ، هذا التيار الذي بدأ متزمتا ، رافضا لاي عمل شعري لا يتناول بطريقة مباشرة مشاكل الواقع المعاش ، والذي احال الشعر الى مجرد شعارات نبيلة ، وهتافات حارة بلا ادنى احساس شاعري ، ولكن هذا التيار سرعان ما تخلى عن عنفه السابق ، متمخضا عن شعر حقيقي بكل ما في هذه الكلمة من مدلول ، شعر يغوص في اعماق المشكلات الانسانية ، ليستخرج منها كل ما يحرك الاحاسيس ، مبتعدا عن المباشرة والاثارة الوقتية ، مزاوجا من المشاعر الخاصة والاهتمامات العامة ، مبددا هذا الوهم الذي كان يفترض ان الشاعر محرم عليه ان يتناول مشكلاته الذاتية في شعره ، وان عليه – ليكون شاعرا واقعيا حقا – ان يغني في المجموع ، فلا يتناول في شعره الا القضايا العامة ، التي تهم الناس جميعا ، مؤكدا ان الواقعية هي في الواقع ، موقف ، وان الشاعر ما دام يقف في صف التقدم ، فسوف يخرج شعرا واقعيا مهما كانت طبيعة الموضوع الذي يتناوله ، وبهذا الادراك السليم لمفهوم الشعر الواقعي ، ارتفع شعرنا العربي المعاصر الى ذروة عالية من النضج جعلته يقترب كثيرا من المستوى الذي انتهى اليه الشعر في العالم المتقدم .

واذا كان هذا الجيل قد حمل على كاهله كل عبء هذه المهمة ، فقد قام بمهمة اخرى لا تقل عن سابقتها خطورة ، الا وهي كسر عمود الشعر التقليدي ، والخروج من اسر الشكل المعتاد للقصيدة العربية الى طرائق جديدة للتعبير الشعري ، تندرج تحت ما اصطلح على تسميته بالشعر الحر ، ويتميز شعر الاصلاء من شعراء هذا الجيل ، وذلك لطول ممارستهم للنظم بالطريقة التقليدية ، بسلامة التركيب الشعري، واتباع الاسس العامة التي اتفق عليها العروضيون ، لا يحيدون عنها الا للضرورة .

وديوان « فصل في الحكاية » للشاعر فتحي سعيد يمثل شعر هذا الجيل اصدق تمثيل . فالواقعية عنده لا تعني مجرد شعارات ، او بعض العبارات الخطابية ، كما ان شاعرنا لا يقف عند تصوير بعض صور التخلف ، او يكتفي بسرد بعض الامراض الاجتماعية بطريقة مباشرة ، وانما يفهم الواقعية بمعناها الصحيح ، لنستمع اليه في هذه الابيات ، ولنر كيف يرسم هذه الصورة النابضة لانساننا العربي الجديد، بطريقة فنية ، فيها كل ملامح الواقعية الحقة ، بلا هتافات او اثارة مفتعلة لحماس وقتي :

ما اروع الانسان حين يفرد الجناح ..
يحرك الرياح ..
يسخر الاشياء ..
ان شاء للبناء ..
او شاء للفناء ..
فكل شيء عنده وفير ..
وملكه الكثير والكثير ..
والشوط من امامه طويل ..
والفجر خلف ليله جميل « ص ١٩ »

وشاعرنا لانه يدرك الواقعية ادراكا واعيا ، لا يجد باسا في ان يتناول مشكلته العاطفية ، بل انه ليمزج قضيته الخاصة – كعاشق – بقضية البسطاء في شعبه مزجا فنيا طيبا ، فتصبح القضيتان قضية واحدة ، فهما مرتبطتان تماما ، وفي حل احداهما حل الاخرى بلا مراء، ففي قصيدة « كسائر البشر » يرسم لنفسه صورة واقعية ، فهو لا يملك النجوم ولا القمر ، ولا بساط الريح ، كما انه ليس في قدرته الهيام في السحر ، وليس في خزائنه الذي ندر ، ولا بجعبته غوامض ، ثم ياخذ في وصف بيتهم البسيط ، واسرته العريقة مع فقرها ، وهكذا يستمر – بطريقة فنية – في وصف ابيه وكفاحه المرير في الحياة ، ثم يعود الى رسم صورة لنفسه ، فهو ليس بالفتى الوسيم ، كما انه ليس في قدرته ان يفعل كشعراء العشق الزائفين ، الذين يرقرقون الحديث في مسامع الحسناوات كالخدر ، ولكنه .. كسائر البشر :

مشاعر وطاقة تموج بالفكر ..
وخافق على الهوى عبر « ص ١٣ »

ثم يرسم صورة لنضاله من اجل من يحب ، وهنا تمتزج قضية العمل بقضية الحب امتزاجا طبيعيا ، لا تكلف فيه ، وبهذا يحقق الفهم السليم للواقعية بصورة مشرقة بناءة :

من اجل حبك الكبير اعشق الخطر ..
فخطوتي تغوص في الابر ..
وساعدي يفتت الحجر ..
ويضرب الثرى .. فتنبت الخضر ..
ويزرع الضياء في دجى الحضر ..
ويفرش الطريق بالمنى وبالزهر ..
من اجل حبك الكبير اطلق الوتر ..
ونجتني السلام .. والرخاء .. والسنى ثمر .. « ص ١٤ »

وفي قصيدة « البستان » يرسم الشاعر صورة حية لفتاة بسيطة من فتيات شعبنا لنستمع اليه يقول في ختام قصيدته تلك على لسان هذه الفتاة :

متى يدنو لاحلام الشباب اوان ..
أيمضي هكذا عمري .. ولا من يحرس البستان ؟!
فلا مال انا اهوى ولا جاه ولا سلطان ..
ولكن في دمي شوق الى عش به اثنان ..
الى عش انا ابنيه في فن من الافنان ..
انا اغذوه بالاشواق والريحان ..
الى ان كان لي ما كان .!
ودق الباب فانكسرت عصا السجان ..
أنا السمراء يا خلان ..
واخر لوحته الشمس وامتدت له كفان ..
يساقيني .. وبالاخرى .. ينير الدرب للانسان .. « ص ٥١ »

نستطيع من خلال هذه النماذج ان نرى عمق شاعرنا الشاب للواقعية ، وكيف انها لا يمكن ان تقف عند حد القضايا الجماهيرية ، وانما من الممكن ان يكتب الشاعر الواقعي قصائد عاطفية يمتزج فيها الخاص بالعام امتزاجا صميميا ليخرج لنا من خلال هذا الامتزاج مثل هذا الشعر العذب الرفاف . وحتى القصائد التي تتناول التجارب العاطفية الخالصة لا يمكن ان ترفض من جانب الواقعية ، بهذا المفهوم السليم الذي اوضحناه في مستهل هذا المقال ، لنستمع الى هذه المقطوعة من قصيدة عذبة بعنوان « قلبي معك » :

من أي ثدي في المحبة ارضعك ..
وبأي بستان .. ترى قد أينعك ..
من حلمة الخلد الشهي .. همى وروى ادمعك ..
سبحانه من ابدعك ..
وبشرفة الفردوس .. علق ساعديك واذرعك ..
لا انت فوق الارض ، او في السحب تدري موضعك ..
قلبي معك .. « ص ٦٤ ــ ٦٥ »

وهكذا يستطيع « فتحي سعيد » ان يكتب مثل هذا الشعر العاطفي الخالص ، متجنبا تهويمات الرومانسية بما فيها من مشاعر مريضة واحاسيس متهافتة ، فيبهرنا بهذه الخفقات الانسانية الصادقة التي يلتقي عندها البشر في كل زمان ومكان .

والشاعر « فتحي سعيد » كغالبية ابناء جيله من الشعراء الذين شاهدوا نهاية الحركة الرومانسية ، ثم تربوا ونموا في احضان المدرسة الواقعية ، يتسم شعره بالوضوح مع العمق ، فهو لا يلجأ الى مثل هذا الغموض المفتعل ، والتعقيد المصنوع اللذين يلجأ اليهما بعض الشعراء المحدثين ، وديوانه باستثناء قصيدة او قصيدتين « فصل في الحكاية ، الفارس عاد » يشوبهما غموض طفيف لا يستعصي امام اعمال سريع للذهن ، يشرق بالوضوح والشفافية والرمز عنده ذكي لماح ، سرعان ما يتكشف عن مدلوله ، فيمنح عطاءه بسخاء ، ولنأخذ مثلا لذلك قصيدة « من انت » .. التي تبدأ بهذا السؤال « من بالباب » ولكن الطرق المجنون يتوالى من غير حساب ، فيعود الى السؤال « الطارق من ؟ » ، فتترامى اصداء من غير جواب ، فيسأل « من انت اذن ؟ هل انت عدو ، هل انت صديق ؟ » الى اخر هذه الاسئلة التي لا يسمع عنها جوابا ، وهكذا تتدافع موجات القصيدة في حيوية وتدفق الى ان يقول :

الطارق من ؟
هو انت اذن !
هل ثمة نبأ لم يذكر في أي كتاب ؟
من يجرؤ في تلك الدنيا ان يطرق باب ؟
من الا أنت ..
الموت الموت ...
بل جن جنون الكلمات .. « ص ٩٩ ــ ١٠٠ »

وفي اعتقادي ان الشاعر قد اساء الى تجربته المثيرة التي تضمنتها هذه القصيدة بكشفه عن الرمز ، ترى هل يشك في ذكاء قارئه ؟

ولا احب ان انهي مقالي هذا عن ديوان « فصل في الحكاية » للشاعر فتحي سعيد قبل ان اتعرض ــ ولو بلمسات عاجلة ــ للصياغة الفنية ، وفتحي كما سبق ان اوضحت مارس النظم طويلا بالطريقة التقليدية ، فكان من الطبيعي ان نلمس في اسلوبه هذا التماسك والدقة في اختيار الالفاظ ، كما ان تراكيبه تمتاز بشيء غير قليل من القوة ، كدت اقول الجزالة :

اتحداك .. بأن يهواك مثلي اتحدى ..
أيها المحبوب ، حبي فيك قد جاوز حدا ..
كل حد يا حبيبي .. واستبدا ..
وتعدى ..
المسافات ، ولم ابصره يهدا ..
قدري انت .. وهل املك للاقدار ردا ..؟
اتحدى .! « ص ٦٨ ــ ٦٩ »

وشاعرنا وان اتبع في كل قصائد ديوانه طريقة « الشعر الحر » الا ان الممارسة الطويلة لكتابة القصيدة بالطريقة الكلاسيكية قد تركت بصماتها الواضحة على قصائد هذا الديوان ، فالحرص على الايقاع الموسيقي ذي النغم المرتفع الذي تتسم به القصيدة التقليدية واضح في كثير من قصائد هذا الديوان :

يا ليتني .. النغم الجسور سرى يعانق مسمعك ..
يا ليتني ألق الصباح يزيح اشباح الدجى كي امنعك ..
يا ضحكة جمدت على ثغر الضحى .. قلبي معك ..
يوما .. سيندلع اللظى نارا تزلزل منبعك ..
وتعب يا عطشان .. فالصبوات كأس اترعك ..
قلبي معك .. « ص ٦٦ ــ ٦٧ »

كما ان الشاعر حريص على استخدام القافية بطريقة صارمة ، فهو لا يتسامح في قافية واحدة ، بل انه ليلتزم القافية الموحدة في عدد من قصائد هذا الديوان برغم انها مكتوبة بطريقة الشعر الحر : « انظر قصائد : كسائر البشر ــ البستان ــ قلبي معك ــ ولهذا اتحدى » .

والواقع ان من مميزات هذا الديوان الحرص على التزام قواعد العروض ، وعدم الخروج عليها ــ باستثناء تنوع عدد تفعيلات كل بيت ــ الا فيما ندر ..

وبعد ، فمما لا شك فيه ان الاستاذ « فتحي سعيد » قد اضاف بهذا الديوان الى رصيدنا من الشعر الجديد اضافة حقيقية ، ولكن هل يعطي هذا الديوان صورة كاملة للشاعر ؟ لا أظن ..

وفي انتظار دواوينه المقبلة حتى تكتمل الصورة ..

القاهرة — عبد المنعم عواد يوسف

•

قصص من جوته .. الاقصوصة والحكاية

تأليف يوهان فولفجانج جوته ــ ترجمة وتفسير دكتور عبد الغفار مكاوي ــ قصتان قصيرتان ــ ١٢٨ صفحة ــ سلسلة اقرأ ــ مطابع دار المعارف بالقاهرة .

لسنوات غير قصيرة اختفى اسم القاص الشاب عبد الغفار مكاوي من حياتنا الادبية وانقطعت كتاباته عن القارىء العربي ، كان صاحبنا في اثنائها يعمل في الحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة من احدى

الجامعات الالمانية . ومع عودة مكاوي الى بلده منذ وقت قريب ، ادرك الذين يعرفونه ويعلمون مدى اصالته الفنية ، ان الدرجة العلمية التي سعى اليها قاصنا لم تكن هي كل ما حصل عليه في سفره الطويل . وان البعثة لا يمكن ان تشكله كائنا اخر غير الذي كانه ، مثلما فعلت بأديب اخر كان شاعرا لهاكثر من ديوان وسافر في بعثة وعاد ، فاذا بـه يطلق الشعر ويكفر بأثره ويتحول الى باحث اكاديمي في الادب الشعبي اسمه .. فوزي العنتيل ! عاد عبد الغفار مكاوي اذن وفي جعبته الكثير مـن الاعمال بين دراسة فلسفية ، وقصة ، وترجمة لروائع الادب العالمـي وخاصة لاعمال الشاعر الالماني الكبير يوهان فولفجانج جوته . و(قصص من جوته .. الاقصوصة والحكاية) واحدة من هذه الترجمات ..

وقاريء الاقصوصة والحكاية اللتين يضمهما هذا الكتابليس بحاجة الى اسم جوته ليدرك انهما من اثار شاعر عظيم .. فالطابع الشعـري لا يسري في الاخيلة والمظللة لاجواء الاحداث فحسب ، بل يدخل فـي تركيب الشخوص وامزجتهم وتعتمد عليه الاحداث نفسها . كما ان الفن ذاته قيمة سامية ترفعها كلمات (قصص من جوته) وتؤمن به شخوصها، وهكذا كان عمل الرسام مثلا في (الاقصوصة) خليقا بالحمد . كمـا ناقش الاديب الالماني قضايا فنية مختلفة ايضا مثل علاقة الفن بالطبيعة « ما من احد يستطيع ان يقول اين تتوقف الطبيعة ، واين يبدأ الفـن والصنعة من يد الانسان ؟ » (ص ٨) .

وكذلك كان من اهم القضايا التي تناولها جوتـه ، قضيـة الفـن والسلام . ـ فيجسد الاديب الكبير قدرة الفن الفذة على اضفاء الامـن والسلام على الانسان والحيوان على السواء . فالكائنات البشرية وغير البشرية تتفاعل مع جوهر الفن السامي الذي يبرئها من ضعفها وغلها وحقدها وقسوتها ويكاد ينقلها نقلا الى عهودها الخضراء الاولى اذ كانت في طفولة بريئة حلوة . ولا يقف تأثير الفن في هذا المجال عند هـذا الحد ، فجوته يراه ابعد من ذلك كثيرا . فهذه الطفولـة او النقاء الخالص الذي تتسامى اليه هذه الكائنات ليس شيئا مجردا ، بل هـو يدخل في تركيبها موجها غرائزها مهذبا طباعها وهي تضطرب في الحياة، فلا تتعاطف مع جنسها فحسب بل مع الاجناس الاخرى فيتعاطف الانسان مع الحيوان تعاطفا صادقا ، هذا التعاطف الذي يتجاوز به حدود « السيرك » الذي يتمثل به في هذا الميدان .. وهنا تتحول الالفاظ الى اغنيات حقيقية رقيقة تحاول ان تقرب المسافة بين الارض والسماء

ملائكة الله في موكب
ترفرق صاعدة هابطـة
لتنعش ارواحنـا بالنغـم
وتسعدنا بغنـاء السماء
الخالد يحكم في الارض
نظرته سادت في البحر ،
الاسد انقلبت حملانـا
والموج تـراجـع للخلـف ،
والسيف المصقول اللامع
أمسى يتجمد في الغمد ،
الامل تحقق والدين
وتجلت معجزة الحـب
نورا في صلوات المؤمن .

وفي هذا الموضع نحتاج الى وقفة قصيرة يضطرنا اليها جوتـه نفسه بمستواه الرائع .. لنناقش المستوى الفني وكيف يجـب ان يكون . ان قاريء « قصص من جوته » يدرك بوضوح ان هذا الاديـب والشاعر الالماني ، يؤمن ايمانا عميقا بالسلام وينعكس هذا الايمـان بقوة وصراحة في كلماته . ورغم ذلك فالمتلقى يدرك ايضا ان جوته ليس داعية رخيصا او ممن يحملون الشـعارات . وليس في هـذا الموقف تناقض او شيء غير مفهوم كما تدل النظرة العجلى ـ او كما علمتنـا الثرثرات الهتافية التي زيفت قيمنا الفنية في ايام سابقة ـ كيف ؟ لان هذا الموقف هو موقف كل فنان اصيل ملتزم حقيقة بكل القيم العادلة التي تريد للانسان عالما أهنأ واكثر سلاما وحرية وفنا ..

ويسوقنا هذا القول حول الالتزام الى الحديث عن منهج الاديـب الكبير ، فمنهج جوته يمكن ان يخدع هنا ايضا هؤلاء الذين يقفون عنـد السطح لا يعدونه . فجوته يتناول شخصياته من الخارج ، ولكن اي خارج ، انه ليس الخارج المسطح الفقير الذي لا يكاد يقدم شيئا ، بل الخارج ذو الابعاد العميقة الفلسفية التي تريد الوصول الى جوهـر الاشياء في الحياة والكون . والتي تنفذ من المؤقت الى الدائم ومـن القشرة الى اللب ، ولذلك تكون النظرة الكلية التي تجمع اقرب الاشياء وابعدها في وقت واحد ، والتي تجلو الغامض وتبسط المركب وتجعل من « لغز » الدنيا والعيش امرا مفهوما يمكن تفسيره والاطمئنان اليه .

و (قصص من جوته) تقدم لنا ايضا احد الخطوط الكبيرة التي يقوم عليها فن جوته ، وهو التراث الشعبي الالماني ، فشديد اهتمامه بالفولكلور ينعكس في الكثير مما خط ـ ولعل هذا يفسر جانبا مـن جوانب ارتياحه الى استلهام الشرق ـ ولا يقتصر على رائعته المشهورة (فاوست) . فالحكاية التي ترجمها د. عبدالغفار مكاوي مثلا ليست الا استيحاء لهذا التراث الالماني العظيم وانفعالا به واضافة له .. ومن المعرض الكبير الذي تقدمه الخرافات الشعبية وتعتمد عليه وتختلف الوانه من بلد لبلد ، تتابع من خلال الاحـداث .. الارواح المضيئة الصغيرة المرحة التي تبعث بالبشر ، والقدرة الاسطورية للافعى على السحر ، والحسناء التي تميت الاحياء الذين يقتربون منها وتحيـي الموتى الذين تلمسهم ، والمعادن ذات الخصائص النادرة الخ .. وبراعة جوته تبدو في انه لم يجعل كائنات عوالم التراث الشعبي تبتر عـن الحياة والناس ، بل جعلها تلون احاسيس الجماهير سواء أكان ذلـك في ماضيهم او حاضرهم ..

و (قصص من جوته) تسوقنا الى الحديث عن قضية هامة تعكسها ظاهرة متناقضة ، وتتمثل فيما يغمرنا في السنوات الاخيرة من ميـل واضح بل اندفاع ظاهر الى ترسم المذاهب والاتجاهات الادبيـة والفنية الحديثة سواء اكانت موجات جديدة او تيارات عبث ولا معقول ، ترسما شديدا بلا تعقل اذا صح هذا التعبير . القضية الهامة اذن التـي اعنيها هي اصالة الكلاسيكيات التي تشمل القواعد الاساسية فـي الفن والادب . فالهجوم الاهوج على هذه القواعد كما نفعل لا يعني في الحقيقة تجديدا ، فالتجديد ليس في جوهره الا استيعابا للكلاسيكية وفهما لها واحاطة بها اولا . هذان النصان الكلاسيكيان مثلا اللـذان قدمهما عبد الغفار مكاوي عن جوته ، يعكسان بوضوح ثراء القديم الذي يظن البعض منا انه لم يعد يناسب روح العصر لان مكانه بين جدران المتاحف . ثراء يضم لمسات واعماقا انسانية يستشعر احاسيسها قاريء اليوم كما انفعل بها متلقي الامس البعيد الذي كتب له جوته .

واذا كان من المعروف عن د. عبدالغفار مكاوي براعته في الترجمة عن الالمانية ودقته فيها بأسلوب عربي متمكن ، فلن نستكمل في هـذه الكلمة السريعة عمله في تقديم اقصوصة وحكاية جوته ، الا بالاشـارة الى تفسيره ايضا . فهذا التفسير الدسم الذي الحق بالترجمة لم يكن شيئا هامشيا يمكن الاستغناء عنه ، او يقوم بوظيفة زخرفية فارغة تدعو لعظمة جوته . وانما هودراسة اصيلة من باحثفنان يكاد يتخصص في ترجمة يوهان فولفجانج جوته ودراسته ، تلقى اضواء عميقة نافـذة على عملين من اعمال الاديب والشاعر الالماني العظيم ..

المنصورة ـ ج. ع. م　　　علاء الدين وحيد



مطامع اسرائيل في لبنان

بقلم عبد الوهاب كيالي

في مقالة نشرت في مجلة « فورين افيرز » Foreign Affairs الاميركية في صيف ١٩٦٥ كتب ابا ايبان وزير خارجية «اسرائيل» يقول:

« ليس من السخف ان نتصور قادة العرب يطالبون في المستقبل بالحاح (بالعودة الى حدود ١٩٦٦ او عام ١٩٦٧) تماما كما يطالبون اليوم بالعودة الى حدود ١٩٤٧ تلك الحدود التي رفضوها في الماضي ».

وفي اول اذار من عام ١٩٦٤ نشرت جريدة هابوكر الاسرائيلية تصريحا لبن غوريون قال فيه « ان رقعة الاراضي الاسرائيلية كانت تكون اكثر اتساعا لو ان موشي دايان كان رئيسا لاركان الحرب سنة ١٩٤٨ . (١)

وكان لتصريح بن غوريون هذا ردة فعل قوية لدى العسكريين الصهيونيين وخصوصا المسؤولين منهم عن حرب ١٩٤٨ ، وقد رد ييكال الون قائد قوات « البالماخ » سنة ١٩٤٨ ووزير العمل في اسرائيل حاليا على بن غوريون متهما اياه بكونه المسؤول الاكبر عن توقف الحملات العسكرية الاسرائيلية سنة ١٩٤٨ وعزا ذلك الى الضغط الاميركي عليه .

ومما جاء في رد الون انه « عندما امر رئيس الوزراء ووزير الدفاع آنذاك (اي بن غوريون) بالتوقف عن القتال ، كانت جيوشنا جميعها على وشك احراز انتصارات باهرة على جميع الجبهات من نهر الليطاني شمالا الى صحراء سيناء جنوبا ، ولو سمح لنا آنذاك ببضعة ايام اخرى من القتال لقضينا على الجيوش العربية الدخيلة ولحررنا بلادنا باجمعها . »

ان تهديد ابا ايبان عام ١٩٦٥ يلفت النظر الى دينامية الحركة الصهيونية وتحركها المستمر نحو تحقيق اهدافها التوسعية ، بينما يستدعي قول الون « ولحررنا بلادنا باجمعها » الانتباه والتمحيص على اساس ان حدود اسرائيل التي كانت قائمة عام ١٩٦٤ لا تشكل في حال من الاحوال ما تعتبره « الحركة الصهيونية » « ارض اسرائيل التاريخية » . واهم من ذلك واخطر هو مدى ارتباط القول بالعمل والنوايا بالتنفيذ عند العدو الصهيوني الذي لا يتردد لحظة بتحقيق مآربه العدوانية بشتى الوسائل ولا سيما الوسائل المرتبطة بالقوة والارهاب والغزو .

والسؤال الان هو الى اين تمتد حدود اسرائيل حسب التعريف الصهيوني « لارض الآباء » وما هي الاراضي اللبنانية التي تعتبرها الصهيونية بمثابة ارض اسرائيلية محتلة من قبل « العدو » اللبناني بالتحديد ؟

قبل الحديث التفصيلي المدعوم بالوثائق والحيثيات الدقيقة لا بد من تقديم عرض سريع لاسس التفكير الصهيوني في ما يتعلق باهداف دولة اسرائيل والغرض المقصود من وراء اقامتها ومسألة امتدادها الجغرافي .

(١) كان موشي دايان قد قاد فرقة الفدائيين عام ١٩٤٨ ثم اصبح رئيسا للاركان سنة ١٩٥٣ وقائدا للقوات الاسرائيلية اثناء العدوان الثلاثي على مصر .

يتضح من قراءة محاضر المؤتمرات الصهيونية ومقرراتها وخططها ، ومن نشاط قادة الحركة الصهيونية وافكارهم ومذكراتهم واعمالهم ان العوامل التالية كانت تتحكم بتفكيرهم في ما يتعلق بتعريفهم لامتداد فلسطين الجغرافي .

١ - ان اقامة دولة اسرائيل هي الحل المنشود للمشكلة اليهودية في العالم .

٢ - ان الدولة اليهودية في اسرائيل هي تعبير عن القومية اليهودية وتجسيد لها ولما كان كل يهودي ينتمي اليها بحكم يهوديته فلا بد لها ان تكون من السعة بحيث تضم جميع ابناء الامة اليهودية .

٣ - ان فلسطين هي ارض اليهود الموعودة ويجب ان تشمل جميع الاماكن التي تحرك فيها اليهود والاماكن التي اقامت فيها القبائل العبرية في ماضي الحقب .

٤ - ان دولة اسرائيل في فلسطين يجب ان تتمتع بمقومات الدولة القادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والمنعة العسكرية ويجب ان تمتد بحيث تشمل مصادر القوة ، والارض الواسعة ، والمياه الضرورية للزراعة والصناعة ، والمراكز الاستراتيجية التي تضمن السيطرة الدفاعية والهجومية على الاراضي المجاورة .

وهكذا نرى ان الصهيونية استندت في مطالبها بفلسطين وتحديد امتدادها الجغرافي الى الحجج الدينية - التاريخية وتأثرت بالنزعة القومية - العنصرية والافكار الامبريالية كما انها طالبت بالعمق الاستراتيجي والمدى الزراعي وتوافر عناصر الصناعة في مجال رسمها لحدود دولة اسرائيل قبل قيامها .

يخطىء من يظن ان مشاريع اليهود لاستيطان فلسطين والاراضي المجاورة لها قد ولدت مع بروز الحركة الصهيونية بشكلها التنظيمي عام ١٨٩٧ . ذلك ان مشاريع متعددة كانت قد ظهرت قبل ذلك التاريخ وكانت في جلها تستند الى الحجج الدينية - التاريخية ، فما هي هذه المشاريع ؟

لقد لخصت السيدة رشا سلام الخالدي تلك المشاريع في مقالة لها نشرتها جريدة لبنانية تاريخ ١٩ حزيران ١٩٦٥ ، وذلك بعد ان فندت الحجج التوراتية استنادا الى نقطتين هامتين :

١ - نزلت النبوءة على سيدنا ابراهيم قبل ان يكون له نسل (سفر التكوين ، الاصحاح الثالث) ، لذلك فهي تشمل « نسله من بعده » كافة بما فيهم العرب من مسيحيين ومسلمين .

٢ - ان النبوءة قد تحققت بالنسبة الى اليهود منذ الاف السنين بعد ان اسروا في بابل وعادوا ثانية الى فلسطين .

وتشير السيدة رشا الخالدي في مقالها الى ان مطالبة الصهيونيين بارض الميعاد التوراتية ليست اهم المشاريع التي تطرقت الى بحثها قبل قيام المنظمة الصهيونية العالمية ومن هذه المشاريع :

١ - مشروع الرحالة استوري هابرشي في القرن الرابع عشر : تمتد حدود اسرائيل من جبل الاقرع (شمالي اللاذقية) الى مدينة حماه ، ومنها الى قلعة الحصن فدير قانون (شمالي دمشق) فبانياس فبحيرة طبريا بمساواة نهر الاردن نزولا الى البحر الميت فعين قادس فالبحر الابيض المتوسط .

٢ - مشروع الحاخام جوزف شوارتز في القرن التاسع عشر : تمتد حدود اسرائيل بموجبه من جبل النورية في راس شكا جنوبي طربلس وياخذ منه خطا الى الجديدة تحت مدينة الهرمل ، ثم دير قانون فجبل الشيخ فبانياس فبحيرة الحولة فطبريا بمساواة الاردن الى البحر الميت .

٣ - مشروع البحاثتين روبنسون وبورتر في القرن التاسع عشر : من مصب النهر الكبير فوق طرابلس الى حماه نزولا الى الجديدة فالقريتين شمالي شرقي دمشق ، ثم صعودا الى الهرمل ، ونزولا في

منتصف سهل البقاع الى جبل الشيخ الى دان وبمحاذاة الاردن الى البحر الميت .

والواقع انه يمكن ان يضاف الى هذه المشاريع مشروع الحاخام ايزاكس الذي عرضه في كتابه The True Boundaries of the Holy Land المنشور عام ١٩١٧ والذي قدمه الى مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الاولى لكي يعرف العالم « الحدود الحقيقية » لدولة اسرائيل . وتمتد هذه الحدود الحقيقية من جبال طوروس في تركيا وعينتاب فقلعة المضيق الواقعة على الحدود اللبنانية الشمالية فالهرمل والبقاع فبحيرة طبريا فالبحر الميت .

وقد يقول قائل ان هذه الاراء والمشاريع ليست صادرة عن المنظمة الصهيونية العالمية وبالتالي فهي لا تمثل حقيقة رأي قادة اسرائيل والحركة الصهيونية التي عملت على خلق اسرائيل ودعمها بعد اعلان قيام الدولة عام ١٩٤٨ ، فما هي الاراء والمشاريع والمخططات الصادرة عن قادة الحركة الصهيونية وقادة دولة اسرائيل في ما يتعلق بالمطامع التوسعية والامتداد الجغرافي لفلسطين ارضهم « الموعودة » حسب ادعاءاتهم .

٧٠ الف كيلو متر مربع

علينا بادىء بدء ان نشير الى ان الصهيونيين يطلقون تعبير فلسطين على مساحة اكبر من المساحة المتعارف عليها بكثير . فقد ذكر تيودور هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية في مذكراته (الجزء الاول ص ٣٤٢) : « ان الشعار الذي يجب ان نرفعه هو « فلسطين داود وسليمان » . وفي مكان آخر من مذكراته (الجزء الثاني ص ٦٠٢) يقول في ملاحظة سجلها حول محادثاته الاولى مع السلطات العثمانية للحصول على فلسطين كوطن قومي لليهود : « ان الحكومة التركية طلبت ٤٠ مليون فرنك وعرضت ان تعطينا بالمقابل امتياز خط حديدي بين البحر المتوسط والخليج الفارسي بالاضافة الى حق اقامة جاليات ومستعمرات في فلسطين ضمن مساحة قدرها ٧٠ الف كيلو متر مربع » .

والنتيجة المنطقية لمثل هذا الكلام هي ان يتصور القارىء ان مساحة فلسطين اكثر من ٧٠ الف كيلو متر مربع بكثير ، علما بان مساحة فلسطين ايام الانتداب البريطاني لم تتجاوز ٢٦ الف كيلو متر مربع . ومن هنا كان مبرر قولنا ان هرتسل يطلق اسم فلسطين على ارض واسعة تفوق مساحة فلسطين المعروفة . ومع ذلك فان هرتسل كان يتوخى الغموض المقصود لاسباب تكتيكية وقد اظهر ذلك بجلاء في مذكراته عندما دون ما دار في مقابلة تمت بينه وبين مستشار الامبراطور الالماني الامير هوهنلو ، ما يلي :

« وسالني ايضا عن الارض التي نريد وما اذا كانت تمتد شمالا حتى بيروت او ابعد من ذلك . وكان جوابي سنطلب ما نحتاجه . تزداد المساحة المطلوبة مع ازدياد عدد المهاجرين اليهود » . (الجزء الثاني ص ٧٠١ – ٧٠٢) . الا ان هرتسل سرعان ما انتقل من التلميح فكتب بعد ايام من هذه المحادثة يقول :

« المساحة : من نهر مصر الى الفرات . لا بد من فترة انتقالية لتثبيت مؤسساتنا يكون فيها الحاكم يهوديا .. وما ان تصل نسبة السكان اليهود الى الثلثين حتى تفرض الادارة اليهودية نفسها سياسيا » (المصدر نفسه ص ٧١١) .

وبعد موت هرتسل تابع زعماء الحركة الصهيونية اهتمامهم الحيوي في ما يتعلق بامتداد رقعة دولتهم المنشودة . وفي مجال شرحه للاجواء السائدة داخل الحركة الصهيونية يكشف حاييم وايزمن الزعيم الصهيوني المعروف الاطماع الصهيونية الصريحة في لبنان وسوريا اذ يقول :

« وحتى مطلع عام ١٩١٧ كانت القيادة الصهيونية واقعة تحت الوهم الساذج بان فرنسا ليست مهتمة بالبلاد الواقعة الى جنوب بيروت ودمشق وانه بامكان الصهيونية الحصول على هذه المنطقة برمتها ضمن الوطن القومي اليهودي » . (فريسكوس رعنان « حدود وطن » ص ٧٨) .

الواقع هو انه في الوقت الذي كان الصهاينة متفقين حول ضرورة الحصول على امتداد جغرافي واسع لفلسطين في « ارض اسرائيل » فان حدود هذا الامتداد لم تكن محددة بدقة ولم يكن هناك اي اجماع حول هذه المسألة . ولم يكن من قبيل الصدف ان تنصب نشرة «فلسطين» الناطقة بلسان لجنة فلسطين البريطانية – وهي مؤسسة صهيونية – مسألة حدود فلسطين كما تريدها الحركة الصهيونية وذلك قبل صدور وعد بلفور في تشرين الثاني ١٩١٧ وبعده مباشرة .

حدود فلسطين : ارث القبائل اليهودية

في ١٥ شباط عام ١٩١٧ نشرت « فلسطين » المشار اليها مقالا بعنوان « حدود فلسطين » جاء فيه :

« ان الحدود التي نريد ان نتكلم عنها هي حدود فلسطين المستقبل . ان الارض اللازمة تشمل ارث قبائل اسرائيل الاثنتي عشرة ايام التوراة ، بالاضافة الى الامتدادات الضرورية الحفاظ على وحدة الارض وسلامتها .

الحد الغربي هو البحر الابيض المتوسط . اما الحد الشرقي فهو حدود الارض التي كانت تملكها قبائل اسرائيل الممتدة من الشاطىء في شمال صيدا بخط مستقيم الى نقطة تساقط شلالات نهر الاعوج في



بحيرة الهيجانة الى الجنوب من جنوب شرق دمشق الخ » . ثم ينتقل المقال الى معالجة مسألة الدفاع عن فلسطين « التي تتطلب حماية فعالة على الحدود » فيقول :

« ان الحد الاستراتيجي الطبيعي الوحيد هو القطاع الضيق الذي يقع في الشمال ، من صيدا الى اقصى الحد الجنوبي للبنان . والحد الطبيعي الاخر هو وادي البقاع في حال حيازة الاطراف الجنوبية للبنان ، وجبل الشيخ وتحصينها بشكل يكفل السيطرة على المخرج الجنوبي لهذا الوادي » .

وهنا لا بد من شرح اشارة وردت تناولت الحدود الشمالية « من صيدا الى اقصى الحد الجنوبي للبنان » اذ قد يفوت القاريء المعنى الدقيق الذي تنطوي عليه هذه الجملة . فالمقال المشار اليه نشر في مطلع عام ١٩١٧ اي عندما كانت البلاد خاضعة للتقسيمات الادارية العثمانية ، حيث كانت صيدا والاراضي التي فيها ونقطة مصب نهر الليطاني خارجة عن نطاق الاراضي اللبنانية ، ضمن منطقة سنجق عكا . وقد يسأل سائل ما هي اهمية هذه الوثيقة ، وما هو مدى تعبيرها عن حقيقة مطالب الصهيونية في تلك الفترة وما هي غاية الصهيونية من نشرها آنذاك ؟

ان مفتاح الجواب هنا يكمن في تحرك الصهيونية الشامل للتأثير على الحكومة البريطانية ومحاولة الحصول على اكبر رقعة من الارض المجاورة لفلسطين في الوقت الذي كانت بريطانيا ترسم حدود المنطقة من جديد على ضوء الاعتبارات الاستراتيجية (قناة السويس - طريق الهند) وابعاد فرنسا عن هذه المواقع ، وعلى ضوء بروز الصهيونية كحليف مقيم في المنطقة . كما علينا الا ننسى ان ١٩١٧ كان عام الهجوم البريطاني على فلسطين وعام التحضير لاعلان بلفور الذي منح اليهود وطنا قوميا في فلسطين .

في الخامس من ايار ١٩١٧ تابعت نشرة « فلسطين » الصهيونية الرسمية معالجتها لحدود فلسطين لترد هذه المرة على ما نشرته جريدة « كوريري ديلا سيرا » الايطالية حول اتفاق بريطانيا وفرنسا على الحدود الشمالية (لبنان) فكتبت تحت عنوان « لا تقسيم » تقول :
« ما من اتفاق ينص على تقسيم ارض فلسطين القديمة يمكن ان يحوز موافقة اليهود وان ينسجم مع امانيهم القومية » .

واعادت النشرة التركيز على الحدود التي اشرنا اليها وشددت على ضرورة توافر العوامل التالية في الارض التي ستعطى لليهود .

١ - سهولة الدفاع .

٢ - مساحة كافية للتوسع الاقتصادي .

٣ - شمول جميع المناطق التي قد تشكل مصدرا للمتاعب في المستقبل .

وفي ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ حصل اليهود على وعد بلفور المعروف دون ان تكون الحكومة البريطانية قد اقرت حدودا معينة لفلسطين . وهكذا بدأت اللجنة الاستشارية لفلسطين - وهي لجنة بريطانية كانت تضم معظم الشخصيات الصهيونية - عملها لوضع مقترحات لحدود فلسطين في ٦ تشرين الثاني ١٩١٨ وقد قدمت هذه اللجنة مقترحاتها « استنادا الى العوامل التاريخية والاقتصادية والجغرافية » على الشكل التالي :

في الشمال ، نهر الليطاني الى بانياس على مقربة من منابع نهر الاردن ثم في اتجاه جنوبي شرقي الى نقطة جنوبية قريبة من دمشق ، والخط الحديدي الحجازي .

في الشرق ، غربي الخط الحديدي الحجازي .

في الجنوب ، تمتد الحدود الى نقطة قريبة من العقبة والعريش .

ومعنى ذلك ان تشمل فلسطين الجليل الاعلى ، منابع الليطاني والاردن ، وحوران ودمشق واجزاء من سيناء .

وفي ١٨ حزيران نشرت « فلسطين » مقالة كتبها دافيد بن غوريون واسحق بن زفي (الاول تولى رئاسة الوزارة الاسرائيلية مدة طويلة ، اما الثاني فتولى رئاسة الدولة الصهيونية بعد موت وايزمن) تحت عنوان « حدود فلسطين ومساحتها » (وهي منقولة عن كتاب للمؤلفين صدر « باليديشية » لهجة عبرانية - المانية) . جاء فيها ،

« يحد فلسطين غربا البحر الابيض المتوسط وفي الشمال جبل لبنان وفي الشرق الصحراء السورية (صحراء الشام) وفي الجنوب شبه جزيرة سيناء ، هذه هي الحدود التي حددتها الطبيعة لفلسطين . وبكلمات اخرى تضم فلسطين النقب برمته واليهودية والسامرة والجليل وسنجق وحوران وسنجق الكرك وجزءا من سنجق دمشق اي اقضية القنيطرة ووادي عنجر وحاصبيا » .

المطامع في لبنان الجنوبي

وفي المذكرة الرسمية التي قدمتها الحركة الصهيونية الى مؤتمر السلام عام ١٩١٩ نجد ان المطامع الصهيونية التوسعية في لبنان الجنوبي تحتل المكان الاول في مطالب الصهيونية ومخططاتها . تقول المذكرة :

« ان حدود فلسطين سوف تتبع الخطوط العامة الموضوعة كما يلي :

تبدأ من الشمال عند نقطة على البحر الابيض المتوسط بالقرب من صيدا وتتبع منابع المياه التي تنبع من سفوح سلسلة جبال لبنان حتى جسر القرعون ثم الى البير ، وتتبع الخط الفاصل بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ » .

وشرحت المذكرة الاسباب الموجبة لهذه الحدود :

« ان الحياة الاقتصادية في فلسطين تعتمد على مصادر المياه المتوافرة ومن الاهمية الحيوية بمكان ان تضمن فلسطين استمرار تدفق المياه التي تروي البلاد حاليا وان تتمكن ايضا من تخزينها والسيطرة عليها عند منابعها » .

وفي احدى مسودات المذكرة التي قدمتها الحركة الصهيونية الى مؤتمر السلام طالب هيربرت صموئيل (احد اقطاب السياسيين البريطانيين واول مندوب سام عينته بريطانيا في فلسطين المنتدبة ، وهو يهودي صهيوني) بادخال كلتا ضفتي نهر الليطاني والحد الشمالي الاعلى لمنابع نهر الاردن قرب راشيا ضمن حدود الوطن القومي اليهودي (رعنان ص ١٠٥) .

... الى ضواحي مدينة بيروت

وفي ٢ تشرين الثاني ١٩١٩ اقترحت نشرة « فلسطين » الناطقة بلسان الحركة الصهيونية مد الحدود الى شمال صيدا وادخال مدينة صيدون القديمة ضمن اراضي الوطن القومي اليهودي فيشمل الساحل الفلسطيني بذلك ضواحي مدينة بيروت .

وفي ٦ كانون الاول ١٩١٩ حددت زعامة الحركة الصهيونية اطماعها بلبنان الجنوبي على الشكل التالي :

« ان الحقيقة الاساسية في ما يتعلق بحدود فلسطين هي انه لا بد من ادخال المياه الضرورية للري والقوة الكهربائية ضمن هذه الحدود ، وذلك يشمل مجرى نهر الليطاني ومنابع مياه الاردن وثلوج جبل الشيخ » .

حديقة صغيرة : لا !

وفي اجتماع هام حضره فرانكفورتر (وهو صهيوني اميركي

كان يتمتع بنفوذ لدى الرئيس ولسون) والقاضي برانديس وبلفور صاحب « الوعد » المعروف واللورد بيرسي ، جرى حديث حول الشروط الضرورية لتحقيق البرنامج الصهيوني في فلسطين . وقد وجد المجتمعون ان هناك ثلاثة شروط اساسية هي :

« اولا — ان فلسطين يجب ان تكون الوطن القومي لليهود لا ان يكون لليهود وطن قومي في فلسطين وحسب .

ثانيا — يجب توفير مجال اقتصادي رحب لفلسطين اليهودية واكتفاء ذاتي وحياة اجتماعية صحية . وهذا يعني حدودا مناسبة لا مجرد حديقة صغيرة في فلسطين ويعني ذلك السيطرة على المياه في الشمال » .

(وثائق الحكومة البريطانية عام ١٩١٩ ، الجزء الرابع عدد ١٩٧ المادة الثالثة ص ١٢٧٦) .

معارضة فرنسية ضد التوسع

وبعدما توصلت بريطانيا الى اتفاق مع فرنسا حول الحدود بين مناطق الانتداب التابعة لكل منهما ابدى زعماء الحركة الصهيونية سخطهم على هذا الاتفاق الذي « افقدهم » الليطاني والاردن الاعلى وجبل الشيخ وحوران وحاولوا جهدهم تغيير الحدود سلميا عن طريق اقامة جاليات في لبنان وسوريا . لكن هذه المحاولات وجدت معارضة من السلطات الفرنسية . وقد صرح دي جوفينال في ما بعد « بانه يوافق على اسكان المهاجرين اليهود بالقرب من الفرات او في اي مكان في سوريا ما عدا الاماكن المحيطة بالحدود الفلسطينية لانه يخشى المطامع التوسعية الصهيونية » (رعنان ص ١٣٩) .

بيد ان الحركة الصهيونية لم تيأس ولم تنثن عن محاولاتها للاستيلاء على منابع المياه قبيل قيام دولة اسرائيل وبعد قيامها . ولعل ما جاء في احدى الصحف اللبنانية عام ١٩٤٠ يكشف نيات الحركة الصهيونية واهدافها التوسعية في لبنان مما يغني عن الشرح والتعليق :

« رجل في فلسطين واخرى في لبنان
الصهيونيون يشنون على لبنان غزوا صامتا .

كنا نعتقد ان تخوف الحكومة وتحفظ مجلس النواب من خطر الصهيونية على لبنان هما مجرد تحذير وتحوط اكثر مما هما من الامور الواقعية البارزة .

والواقع ان هذا الخطر قد ذر قرنه منذ امد ، غير ان المسؤولين تجنبوا اظهاره كما هو لئلا يثيروا الخواطر في وقت تحتاج البلاد الى هدوء لاجتياز المراحل المتشابكة التي تعانيها .

فقد اتصل بنا عن ثقة ان جماعات من الصهيونيين في فلسطين شرعت منذ مدة في اجتياز الحدود الى لبنان خلسة تحت ستار الكتمان وبواسطة سماسرة ماهرين في دلهم على الطريق !

وقد تكاثر جموع الغازين منهم على مختلف نقاط الحدود فتوزعوا بين العاصمة ومدن المحافظات . ولا نعلم اذا كان المقصود بهذه الحركة فسح المجال للاجئين الجدد الى فلسطين ام التوطن في لبنان عن طريق مشترى الاراضي والعقارات لتوسيع الوطن الصهيوني على ظهر لبنان » .

نهتم بالاردن ومنابعه

ان هذه الاطماع والمحاولات ازدادت جدية بعد قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ . ومع ان الحركة الصهيونية حاولت التزام الغموض والحذر في موضوع الكشف عن النيات والمخططات التوسعية فقد كتب ابا ايبان احد الرسميين الاسرائيليين آنذاك ووزير خارجية اسرائيل الحالي في مطلع ايار ١٩٥١ ، وفي معرض نفي وجود نيات توسعية اسرائيلية على حساب البلاد العربية المجاورة يقول :

« لسنا من المهتمين بالنيل والفرات لكننا نولي الاردن ومنابعه كل اهتمام » .

(صحيفة جيروزالم بوست عدد ٢ ايار ١٩٥١) .

مشروع قتن : مياه الليطاني

وفي عام ١٩٥٤ نشرت الحكومة الاسرائيلية « مشروع قتن » ضمن مشاريعها المائية الرسمية ، وقد تضمن جر مياه نهر الليطاني الذي ينبع ويجري ويصب في الاراضي اللبنانية (راجع «مشكلة مياه الاردن» نشر جمعية اصدقاء الشرق الاوسط الاميركية ، واشنطن ١٩٦٤ ص ٧١)

وفي مطلع ١٩٥٥ نشرت مجلة « ميدل ايسترن افيرز » الاميركية الصهيونية مقالا جاء فيه :

« كان من الواضح للاسرائيليين ان احلام تطوير النقب لا يمكن ان تتحقق بدون مياه الليطاني » . وليس من شك في ان اهداف اسرائيل في استقدام اعداد جديدة من المهاجرين اليهود واعمار النقب وتحقيق منعة عسكرية استراتيجية تفرض علينا اخذ المطامع والمخططات الصهيونية التوسعية على محمل الجد . فهذه المطامع والاقوال نابعة من صميم العقيدة الصهيونية ومن صلب الحل الصهيوني للمشكلة اليهودية ، كما انها تعكس حاجات الواقع الاسرائيلي من الناحيتين العسكرية والاقتصادية . ومن يتابع تاريخ الصهيونية واسرائيل في المنطقة يدرك مدى خطورة مطامعها ومدى استماتتها في معرض تحقيق سبل بقاء الكيان الاسرائيلي الغاصب . ولا بد في هذه المناسبة من القول ان اسرائيل قد اعتادت اتباع اسلوب الغدر والمباغتة ولم ينفع الاردن مثلا جميع التطمينات الاميركية اذ ان هذه التطمينات لم تحل دون وقوع الاعتداءات الصهيونية المتكررة .

ان سجل اسرائيل العدواني — التوسعي في المنطقة لا يترك مجالا للشك بان مطامع اسرائيل التوسعية هي اكثر من مجرد احلام وتطلعات : انها مخططات جاهزة للتنفيذ ، وهي اعمال وهجمات يدافع عنها الصهاينة بعد الاقدام عليها ، وهي تقطع الشك باليقين ولا تدع مجالا للتردد في تهيئة القوى والاستعدادات كافة لمواجهتها .

عبد الوهاب كيالي